



مزمور الراعي

تأليف

ف. ب. مابر

تعريب

القمص مرقس راود

الطبعة الثانية

بجته خلاص النفوس للنشر



مقدمة

إن رؤية قطعة رائعة من الفن معلقة على جدران أحد متاحف الفن وسط ازدحام المتفرجين تختلف اختلافاً كلياً عن رؤيتها بهدوء معلقة على جدران منزل خفم حيث يتوفر الوقت للجلوس ودراسة فكرة الفنان ، والتأمل في الأنوار المختلفة التي تصورها ، نور الصباح المبكر ، أو نور الظهر ، أو نور الغروب البهيج .

ولعل التمتع بهذه القطعة الفنية يزداد عندما يقف فنان آخر بجانبها ويروي مقدار تأثيرها على عقله ، ويتحدث عن الجمال الرائع الذي خفي عليه في بداية الأمر للنظرة الأولى السطحية العابرة .

ومن أجل هذه الغاية كتب هذا الكتاب ، لكي يتركز التفكير ثانية - في هدوء سرير المرض أو هدوء مخدع الصلاة - في هذا المزمور المنقطع النظير ، ولكي يعاد التأمل في كلماته المألوفة في ضوء الاختبارات المسيحية المستمرة النخوة ، وربما لكي يتبين جمال غير ملتفت إليه ، وإذا ما تبين لا يسع المرء إلا أن يرى مبرراً جديداً لتقديم الشكر للروح القدس الذي أوحى بهذا المزمور ، مزموماً الراعي ، لمزمن إسرائيل الحلو .

ف . ب . ماير



بِسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ
إِلَهُ وَاحِدَ . آمِينَ

مطبعة الكتاب المقدس

مزمو ر المزامير

(مز ٢٣)

يطلق البعض على هذا المزمور مزمور عصا الرعاة . إنه يتوسط بين مزمور الصليب ومزمور التاج . إن كان المزمور الثاني والعشرون يتحدث عن الراعى الصالح الذى مات ، والمزمور الرابع والعشرون يتحدث عن الراعى الرئيس الذى سوف يأتى ثانية ، فإن المزمور الثالث والعشرون يتحدث عن الراعى العظيم الذى يحفظ خرافه بحكمة لن تخطيء وعناية لن تكل . إنه ليس أجيراً . وهو لا يطلب أجراً . ولا يأخذ جزاءً . ولا يبالي بالنفقة . فالخراف له . وفى هذه الكلمات الحلوة نتعلم وجهة نظره نحوها اليوم فى كل دقة ومحبة .

يتحدث البعض عن هذا المزمور كعقيدة . سمعت عن أحد المفكرين أنه إذ أتممته الأمور المرتبكة التى تنقل قلوب وعقول الكثيرين فى هذا العصر العجيب ، وإذ طلب منه أن يدلى

بعقيدته بدأ يردد كلمات هذا المزمور بنبرات صوته المثيرة للعواطف ونظرات أسيفة . وعندما أكمل كل المزمور أضاف هذه الكلمات :

« هذا هو عقيدتى ، ولست فى حاجة لغيرها ، ولا أريد سواها . لقد تعلمت هذا المزمور من أمى ، وتعودت أن أردده فى كل صباح بعد الاستيقاظ من النوم أثناء العشرين سنة الماضية ، ومع ذلك لم أصل بعد إلى معرفة نصف معانيه ، لأننى أكاد أكون قد بدأت فى تفهم الأوليات فيها . وأعتقد أنه عندما يحين وقت الوفاة فستكون المهمة لم تنته بعد . لكننى بنعمة المسيح سأتمسك بهذا المزمور كعقيدتى ، وسأجاهد لكى أومن به وأحيا به . لأننى أعرف أنه يقودنى إلى الصليب ويرشدنى إلى المجد » .

نعم ، هذه شهادة حق . وكما أنه إذا حدّق المرء فى جوهره نفيسة رأى ينابيع من الألوان تتدفق من أعماقها ، هكذا عندما نتأمل فى أعماق هذا المزمور ، البسيط كترنيمات الأطفال والعميق كترنيمات رؤساء الملائكة ، نرى فيه الإنجيل مصغراً ، نرى نعمة الله منعكسة كانعكاس الشمس فى نقطة مياه الندى ، ونرى

ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يحظر على قلب إنسان . عندما
تقرأ في كلمات هذا المزمور معنى الأناجيل تجد إنك قد حصلت
على عقيدة منقطعة النظير يقبلها كل المسيحيين بلا تردد .

ويتحدث عنه الآخرون كأنه مرنم . أماي الآن كتاب
يصف هذا المزمور بأنه مرنم متجول انتدبه الله لمتجول هنا
وهناك في كل أرجاء العالم ، فيرنم ترنيمات شجية جداً حتى إن
من يسمعا ينسى كل الأحزان التي كانت تعصر قلبه وتمزقه . هذا
أيضاً حق ، فإن هذا المزمور يتحدث بلغة يستطيع أن يدركها
البشر جميعاً . إنه يسحر القلب بكيفية تنفي عنه الأحزان التي
تتحدى كل فلسفة بشرية وكل أفراح عالمية . إسمع بعض ما قاله
عن هذا المزمور :

« إنه نفى عن القلب الكثير من الأفكار النجسة ،
والشكوك المربكة ، والأحزان الكثيبة . إنه عزى الكثيرين من
المساكين . إنه شدد عزائم الكثيرين من اليائسين . إنه سكب
بلساناً وتعزيات في قلوب المرضى . إنه افتقد المسجون ، وحطم
قيوده ، وأخرجه من سجنه - كما أخرج الملاك بطرس - وأعاده

إلى بيته سالمًا . إنه جعل العبد المسيحي أكثر حرية من سيده ،
وعزى الذين تركهم حبيبتهم حزاني ، ولم يكن حزنهم بسبب فقد
بقدر ما كان لأنهم لم يلحقوا به . على أن مهمته لا تنتهي عند هذا
الحد ، فإنه يسير مترنماً كل الدهور ولا يطوى جناحه حتى يتم
آخر مؤمن سعيه وينتهي الزمن . عندئذ يطير عائداً إلى حضن الله
الذي خرج منه ، ويهتف هتافاً متمزجاً بكل الهتافات السماوية التي
تجعل السماء ممتلئة بالموسيقى إلى الأبد » .

ويمكن تشبيهه أيضاً بقدس الأقداس داخل الهيكل الذي
ارتفع عالياً كنفخة طويلة ، كما بناه سليمان والذي يتمتع بهدوء
كامل . مهما اشتدت الضجة في شوارع المدينة المقدسة الضيقة ، أو
حتى في دور الهيكل ، فقد كان هنالك دواماً مكان واحد هادئ
هدوءاً تاماً ، حيث كان يبسط الملاك الحارسان أجنحتهما في
هدوء فوق تابوت الله . كانت هنالك على الأقل راحة . ولو كان
قد مُسح للكهنة بالبقاء في ذلك المكان الهادئ مسكن العليّ
لسكانوا يقيناً قد نسوا مشاغل الحياة وضجيجها تحت سحر تلك
الراحة التي لا يعبر عنها . لم يكن ممكناً أن يدخله أى أثر

للاضطرابات أو الهموم أو القلق .

كل هذا نراه في هذا المزمور موضوع تأملنا . هو واحة في صحراء قاحلة . هو مظلة على سفح جبل يعسر التسلق عليه . هو مغارة في الظهيرة اللاخطة الحرارة . هو ركن منعزل للتأملات السماوية الهادئة . هو واحد من أقدس الأماكن في هيكل الكتاب المقدس . تعالوا هنا أيها المنعبون والثقيلو الأحمال . إجلسوا في مكان الراحة هذا الظليل الهادي ، فإن موسيقاه تبعد عنكم الأفسكار التي تقضى على سلامكم . يا من اتخذتم لكم الرب راعياً أتم في أمان ومباركون . أيها القاريء العزيز ، ضع هذا الكتاب جانباً واقرأ المزمور ثمانية بوقار إلى أن تكمل كلماته المألوفة ، وانظر إن كانت لا تصبح لك ملجأ تنكسر عليه العواصف دون أن تؤثر فيه .

ليس هناك موضع للتساؤل عن كتبه . فإن كل آية تحمل توقيع داود . لكن السؤال الذي يصح توجيهه هو : متى وأين سمعته الأذن البشرية لأول مرة ؟ هل رنمه داود لأول مرة وسط جبال بيت لحم إذ كانت الغنم ترعى في مراعيها ؟ أم إنه أنشد

أولاً في أذن الملك الحزين القطب الجبين ، الذي كان جبينه يختلف اختلافاً كلياً عن ذلك الوجه الجميل الصبوح الذي كان للغلام الراعى « الأشقر مع حلاوة العيينين وحسن المنظر » (١ صم ١٦ : ١٢) . لعل هذا قد حدث ، لكن المزمور يتضمن من القوة والنضج والعمق مما لا يتفق مع الشباب الغض ، ولذلك فإنه خليق برجل تعلم الخير لأنه عرف الشر ، واختبر رعاية نعمة الرب وسط مشاغل الحياة البشرية المنوعة .

يقيناً أن هذه الكلمات رنمها لأول مرة شخص كابد آلاماً عنيفة ، وذاق كؤوساً كثيرة ، واضطر إلى أن يسلك طرقاً كثيرة مخوفة بالمخاطر والأشواك .

قيل في إحدى الروايات الفارسية أن وزيراً خصص جانباً من قصره لذكريات أيامه الأولى قبل أن يرفعه الملك من حالته الوضيعة إلى مركزه الرفيع . في غرفة صغيرة ، مجردة حتى من أسط قماش يغطي أرضيتها ، وضع أدواته البسيطة التي كان يستعملها إذ كان راعياً للغنم : العصا ، الجراب ، الملابس الخشنة ، كوز الماء . وفي هذه الغرفة كان يقضى بعض الوقت كل يوم ، يستعيد فيه ذكريات حالته الأولى ، وذلك كوقاية من التجارب التي تحيط بالمرء وقت

العظمة العالمية . هكذا لم ينس داود الملك ما كان عليه داود الغلام الراعى . كانت هنالك غرفة في قلبه تعود أن يعتزل فيها للتأمل والصلاة . في هذه الغرفة كتب هذا المزمور الذى امتزجت فيه اختبارات رجولته الكاملة بذكريات شبابه الذى قضاه بين الغنم .
 بقى علينا أن نضيف هذه الفكرة قبل أن نختم تأملاتنا هذه :
 في هذا المزمور قوة تشفى من يلمسه ، لكن قوته ناشئة من أنه لا يتحدث عن الإنسان إلا قليلاً لكنه يتكلم عن الله كثيراً .
 تأمل كيف يركز كل آية في شخص الله بأنه هو الذى يفعل هذا أو ذاك . هذه هى سياسة الحياة الحقيقية . إن عدم الإيمان أو الشك يضع الظروف بين الإنسان وبين المسيح فلا يعود يراه الإنسان ، كما فعل التلاميذ وسط ضباب الشك إذ « اضطربوا ، ومن الخوف صرخوا » (مت ١٤ : ٢٦) . أما الإيمان فإنه يضع المسيح بين الإنسان وبين الظروف ، فلا يعود الإنسان يراها .
 « كنت لا أبصر من أجل بهاء ذلك النور » (أع ٢٢ : ١١) .
 الشك يركز النظر في الناس ، وفي الأشياء ، وفي الاحتمالات ، وفي الإمكانيات ، وفي الظروف . أما الإيمان فلا يشغل نفسه بهذه ، ويأبى أن يصرف وقته وينفق قوته في التأمل فيها . إنه يركز

نظرة في الرب ، واثقاً أنه قادر أن يسد كل أعوازه ، وأن يرفعه فوق كل المتاعب والصعوبات .
 أيها القلب المرتعب الخائف ، تطلع بعيداً ، وتطلع إلى فوق .
 حقاً إن متاعبك قد ازدادت بالتطلع إلى الصعوبات ومسبباتها .
 الآن ، كف عن كل هذا . لا تتحدث فيما بعد عن المدن المسورة والجبابرة الذين فيها ، عن الطرق الوعرة والأودية المظلمة ، عن الوحوش المفترسة واللصوص . بل تأمل في محبة الراعى وقدرته وحكمته . المحبة التى لم تشفق على دمها . القدرة التى صنعت العالمين . الحكمة التى تخصى الكواكب . إن خلاصك لا يتوقف على ما أنت عليه بل على قدرة القدير . فى كل مرة تتطلع إلى نفسك تطلع إلى المسيح عشر مرات . لا تتحدث عن نفسك بل عن الله .
 لا تتحدث فيما بعد عن دموعك ، وفشلك ، وخطاياك . بل تحدث عن كفاية المسيح ، وكيف كانت احتياجاتك هى الوسيلة لإظهار خلاصه . أنشد مرة أخرى التريزيم القديمة التى تتحدث عن وعد الله يسد كل احتياجات البشرية بمحبه الرعوية . وفى كل آية من هذا المزمور ، مزمور الأطفال ، ومزمور الشيوخ ، تأمل فى كل ما يعد به الله أن يفعله .

الرب الراعى

« الرب راعى فلا يعوزنى شئ »

(مز ٢٣ : ١)

انقضت ثلاثة آلاف سنة منذ رنم مرنم إسرائيل الحلو هذا المزمور عن عناية الله الرعوية . ثلاثون قرناً . هو وقت طويل . وفي هذه الحقبة الطويلة تحولت بقايا سائر مخلفات داود المادية إلى تراب بالرغم من العناية الفائقة التى بُذلت نحوها .

فالعود الذى لعبت به أصابعه وأخرجت به موسيقى سماوية شجية ، والراية التى تعود أن يرفعها باسم الرب ، وكتاب الناموس الذى تعود أن يتأمل فيه نهائراً وليلاً ، والسيوف الضخمة التى قتل به جليات ، وغرفة النوم فى قصره التى انتقلت منها روحه لتتعم إلى صفوف مرعى السماء — هذه كلها ترقد عميقاً وسط خرائب الدهور .

أما هذا المزمور ، فإنه بالرغم من قدمه السحيق ، وبالرغم من أنه قد رددته أسننة ربوات البشر فى كل الأجيال المتتامة ،

فلا يزال جديداً اليوم كأنه قد كُتب الآن . كلمات ثمينة . هى الكلمات الأولى التى نعلمها لأولادنا . ولعل الطفل يسوع نفسه تعلم أن يرددها باللسان العبرى إذ كان يجثو بجوار أمه فى الناصرة . وهى بين الكلمات الأخيرة التى زردها يوم نودع أحبائنا الراحلين . إن المريض وهو يتلقى من المرض على فراشه ، والشهيد وهو يرى المقصلة مهيأة له ، والجندى فى نوبة حراسته ، والمسافر وسط الأخطار الكثيرة التى تحدق به — هؤلاء ، وغيرهم وغيرهم ممن لا حصر لهم ، وجدوا فى هذه الكلمات مناعة ضد الخوف ، ووجدوها حافزة لهم على تجديد الحياة وعلى إحياء الرجاء « الرب راعى » ، فلا يعوزنى شئ » .

(١) « الرب » ، أى « يهوه » . وكان اليهود يفزعون من هذا الإسم حتى إنهم استعاضوا عنه بكلمة « الله » . كان لا يُنطق به إلا مرة واحدة فى السنة ، وذلك فى يوم الكفارة العظيم ، على أن لا ينطق به إلا رئيس الكهنة فى قدس الأقداس .

كلمة « يهوه » تعنى : الحى ، الكائن بذاته ، ال « أنا هو » . تعنى : الذى كان ، والكائن ، والذى يأتى ، الساكن فى الأبدية ،

الذى فيه حياة فى ذاته . كل حياة أخرى ، من أدنى المزروعات إلى رئيس الملائكة أمام العرش ، تعتمد عليه ، ومستمدة منه . كل حياة أخرى تذبل ، وتتغير ، وتشيخ . أما هو فإنه هو وحده الذى يبقى كما هو دون أن يعتريه أى تغيير . كل حياة أخرى هى نار يمتددا هو بالوقود ، أما هو فإنه وحده الذى يكفى نفسه بنفسه . هذا السكان الأسمى المقتدر هو راعينا . إرفع إليه قلبك فى وقار واتضاع وقل له « يا راعى إسرائيل أصغ . يا قائد يوسف كالضأن . يا جالساً على الكروبيم أشرق » (مز ٨٠ : ١) .

وإذ نسبح بأفكارنا وسط الأجيال الماضية نلتقى بشخصية مجيدة مجاهدة كان شبح الآلام مقبلاً إليها . كان يتكلم من مكان قريب من السكان الذى أشد فيه المزمور لأول مرة منذ ١٢٠٠ سنة . هل هو اختلاس ، هل هو تجديف ذلك الذى نطق به ؟ كلا ، لكنه إنما طبق كلمات المرنم على نفسه وقال « أنا هو الراعى الصالح » .

أقرن الكلمتين معاً : الكلمة الجليلة التى تصف الله الأزل ، وكلمة المحلص الرقيقة ، تجد لقب ربنا الخلق به : « يهوه يسوع » .

فلنقرأه فى مزمورنا ، ولنقل فى روح تقدير جديد لمعناه « يهوه يسوع راعى » . أية حاجة نحتاجها ولا نجدها فى هذا الراعى ؟ إنه كيهوه له كل سلطان . وكيسوع له كل عطف . كيهوه هو يعول كل العالمين ، وكيسوع هو حى إلى الأبد ليشفع فينا . كيهوه هو رب الكل ذو السلطان المطلق ، وكيسوع هو لا يزال يظاً طرق هذا العالم ، سائراً بجوارنا ، يهمس فى آذاننا ، برقة وعدوبة ، هذه الكلمات الحلوة « لا تخف أيها القطيع الصغير » .

(٢) « راع » . كان يعقوب هو أول من نطق بهذه التسمية الرائعة لله - وكان يعقوب نفسه راعياً يوماً ما - إذ كان على فراش الموت فى مصر : فإنه إذ تطلع إلى ماضى حياته تحدث عن الله راعيه وقال : « الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم » (تك ٤٢ : ١٥) . وبعد ذلك نرى نفس التعبير فى كل صفحات الكتاب المقدس إلى أن نأتى إلى صفحاته الختامية حيث نقرأ عن الحمل الذى يقود قطيعه إلى أنهار ماء الحياة .

إن الراعى الشرقى يحتل مركزاً فريداً بإزاء غنمه . وتقوم صداقة بينه وبين الخليقة العجمى التى تحت رعايته . ولن تجد مثيلاً

له بين الرعاة في الغرب . فلتحرص على أن تتمتع بهذه العلاقة .
 في الصباح الباكر يخرجها من حظيرتها إلى المراعى الخضراء .
 يجب أن يراقبها عن قرب طول النهار لئلا تفس بأذى من الوحوش
 المفترسة أو من اللصوص . وهو يوردها إلى مياه الراحة - أو
 « المياه الهادئة » حسب الترجمة الانجليزية - لتشرب مطمئنة حيث
 لا يوجد تيار جارف يزعجها أو يعرضها للخطر . وفي الليل يعيدها
 إلى الحظيرة لتكون في أمان . وفي فصل معين من السنة يأخذها
 إلى مراعى بعيدة عن وطنه وعن المكان الذي يرتاده الناس ،
 حيث يعيش وسطها تلفحه أشعة الشمس في النهار وبيتل بندى
 الليل . وإن عجز أحد الحملان عن متابعة باقي القطيع حمله في حضنه .
 وإن ضل خروف واحد بحث عنه حتى يجده ، متتبعاً آثاره في
 خصل الصوف التي تعلقت بالشوك . وإن داهمها الخطر خاطر
 بحياته . إن الرعاة في الشرق يشبهون جنوداً حملوا السلاح
 للحرب ، فالبنديقة معلقة على الكتف ، والطبنجة في الحزام ،
 والعصا في اليد .

هكذا يصبح الراعى وغنمه أصدقاء إذ يعيش معها بهذه
 الكيفية . إنها تعرفه وتلبى دعوته عندما يدعوها بأسمائها . بعضها

تتبعه ملاصقة له كخاصته المقربة له الواقعة من محبته . إنه يفعل كل
 ما يريد بأى واحد منها ، ويخرج ويدخل وسطها بكل سهولة
 دون أن يسبب لها أقل انزعاج .

كل هذا يصدق على ربنا يسوع المسيح ، راعى الخراف
 الأعظم . إن له قلب الراعى الممتلىء بحبة طاهرة كريمة لم تحسب
 دمه ثمناً غالياً لفدائنا .

وله عين الراعى التي تلاحظ كل القطيع دون أن تتغافل
 حتى عن الخروف الهزيل الذى ضل الطريق وهام على وجهه
 فوق الجبال .

وله أمانة الراعى التي لا تفكر لرعيته ولا تنبذهم ، ولا تتركنا
 في ياسنا وحزننا دون أن تعزى قلوبنا ، ولا تهرب عندما ترى
 الذئب مقرباً .

وله قوة الراعى ، ولذلك يستطيع أن يخلصنا من فم الأسد
 ومن يد الدب .

وله رقة الراعى . لا يوجد حمل صغير لا يحمله . ولا يوجد
 قديس ضعيف لا يقوده برقة . ولا توجد نفس متعبلة لا يهبها

راحة . هو يشفق كآب ، ويعزى كأم . ورقته جليسة القدر .
بحوافيه يظللنا ويسترنا ، وتحت أجنحته نحن نختفى .

آه ، لقد فعل أكثر من هذا . « كلنا كفم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه » (إش ٥٣ : ٦) . كان القصاص قريباً جداً .
لكن يسوع من عرشه رأى الخطر فتحن على الجموع التي كانت كخراف لا راعي لها . ولأنه هو الراعي عرض أن يقدم حياته نيابة عنها ، والرب وضع عليه إثم جميعنا . وعندئذ سمعت الدعوة للربعة « إستيقظ يا سيف على راعي وعلى رجل رفقتي يقول رب الجنود . إضرب الراعي » (زك ١٣ : ٧) . وهو وضع نفسه عن الخراف (يو ١٠ : ١٥) وهكذا فدهم بدم العهد الأبدى (عب ١٣ : ٢٠) . سبحوه ، سبحوه .

(٣) « راعي » . إنه ليس مجرد راع ، بل « راعي » أنا ،
ويا للتغيير العجيب الذي يحدثه حرف الياء .

إن الفرق بين المعرفة وبين التطبيق شاسع جداً . إن قلت « الرب راع » فهذا يختلف كل الاختلاف عما إذا قلت « الرب راعي » . وإن قلت « يسوع مخلص » فهذا يختلف كل الاختلاف عما إذا قلت « يسوع مخلصي » . وحتى إن استطعت

أن ترى المخلص في ضوء الحقيقة الواضحة — مثل توما — وزالت عنك كل الشكوك ، وجسيت يديه ، فإن هذا لا يفيدك كثيراً إلا إذا استطعت أن تقول : « ربى وإلهى » .

يسوع ينتظر حتى يصبح ملكاً لك . إنه لا يكتفى بأن يكون راعياً ، راعياً صالحاً ، راعياً للملائكة القديسين ، راعياً وأسقف نفوس الكثيرين الذين خلصوا . إن حنينه لك لا يستريح إلا عندما تضع يدك عليه وتقول « راعى » . وهذا أمر ميسور لك إن أردت . ليس هنالك ما يعوقك . لا تنتظر ولا تنبأ متسائلاً عما إذا كنت ضمن خرافه . حول النظر من نفسك إليه ، وانظر إن كنت لا تراه جديراً بأن يكون راعيك . وعندما تستطيع أن تقول « راعى » تصبح هذه الكلمة علامة أكيدة على إنك صرت في عداد الخراف التي يقودها وسط الحياة المعقدة إلى حظيرة السماء . « الرب راعى فلا يعوزنى شيء » .

(٤) « لا يعوزنى شيء » . إن خراف الرب تجد أعوازاها متوفرة بغنى وسط كل أحزان الحياة ومتاعبها وضيقاتها . إن من يتبع العالم يصرخ في اعتراف أليم « أنا أهلك جوعاً » (لو ١٥ : ١٧) . أما القديس فإنه يتהלل واثقاً « يملأ إلهى كل احتياجكم بحسب

المراعي الخضراء ومياه الراحة

« في مراعي خضر يربنى إلى مياه الراحة يوردني » (مز ٢٣ : ٢)

في هذه السيمفونية الرعوية الجميلة نرى النعمة في الآية الأولى التي تُنبئنا بأن من يعيش تحت رعاية الله الراعي الأعظم لا يعوزه شيء . أما الآيات التالية فإنها تحتفظ بالتناسق الموسيقي كاملة رائعة الجمال

إن الحاجة الأولى التي لا تعوز من يتبع المسيح هي - كما نخبرنا هذه الآية - الراحة . هذه الآية تهب منها روح الراحة كما يتضح من مدلول كلماتها « في مراعي خضر يربنى . إلى مياه الراحة يوردني » .

ياله من منظر بهيج يُرسم أمامنا . الساعة هي ساعة الظهر في حرارتها اللاحقة . والجو حار يكتم الأنفاس . وكل الأرض ساخنة تسكاد تخبز الخبز . والحجارة على الجبال تلسع الأقدام التي تلمسها . في وقت كهذا ويل للغنم بدون راعٍ ، وويل للراعي إن لم يحتمل في ظل صخرة كبيرة أو غابة ظليلة أو مرعى غني في وادٍ منخفض .

غناه في المجد في المسيح يسوع » (في ٤ : ١٩) . إن أجراءه بفضل عنهم الخبز ، فكأن يكون خاصته ! . « الأشبال احتاجت وجاعت . وأما طالبو الرب فلم يعوزهم شيء من الخير » (مز ٣٤ : ١٠) .

قد يبدو بأن اختباراتك لا تتفق مع هذا التصريح الجليل . لكن لعلك لم تطلب بإيمان تلك المصادر التي كانت في متناول يدك ، أو إنك لم تعرف الله عن طلباتك بالصلاة والتضرعات ، أو أن ساعة حاجتك لم تأت بعد ، أو إنك أسأت فهم حاجتك الحقيقية وأنت تطلب شيئاً قد يضررك . يجب أن تبحث لتعرف عما إذا كانت إحدى هذه النواحي هي السبب في اختلاف اختباراتك عن هذا التصريح الجليل . لأن الأمر مقرر إلى الأبد إنه « ليس عوز لمتقيهِ » (مز ٣٤ : ٩) . هو قادر أن يزيدنا كل نعمة . وهو فعلاً يزيدنا كل نعمة . له المجد إلى الأبد .

آه ، ليتك تربط هذا التأكيد الجميل على قلبك . ومهما هددتك الأخطار ، ومهما هاجمتك الحاجة والعوز ، تقدم إلى الأمام ، أخط خطوة في الظلام ، مشدداً قلبك بهذه الأنشودة العذبة « الرب راعي فلا يعوزني شيء » .

لكننا هنا لا نجد شكوى من أى شيء مماثل . أنظر إلى
النهر الصافي يتهاذى بمياهه البلورية وسط السهل المنبسط . فى منبعه
فى الجبال العالية تتدفق المياه فوق الصخور مرعدة ومزبدة من
جرف إلى جرف وتندفع إلى الأمام فتتراكم على وجهها الرغوى .
لا يستطيع الخروف أن يشرب منها فى حالتها هذه ، لأن الغنى لا
يمكنها أن تشرب من مياه تفور وتغلى وتندفع بمثل هذه السرعة .
أما هنا فقد هدأت واستراحت وأصبحت تتهاذى فى طريقها بخطى
وثيدة ، وجهها هادى رائق ، تنعكس عليه صورة كل زهرة
وشجرة ونبته وصخرة من الصخور الجانبية . بل يمكن رؤية كل
حجر فى قاعه المراعى على جانبيه خضراء زاهية بصفة مستمرة
تزينها ألوف الزهور فى الربيع . والجو يهب عليه نسيم النهر فيرطبه
وينعشه ، والأذن تتلذذ إذ تسمع صوت المياه الموسيقى . لا يمكن
أن تحل المجاعة حيث يجرى النهر . والغنى إذ تشبع من المراعى ترقد
شبعانة مستريحة .

كلنا فى حاجة إلى الراحة . يجب أن تكون هناك فترات
توقف عن العمل فى حياة كل واحد . فإلبد لا يمكن أن نظل

ممسكة آلات العمل بصفة دائمة . والعقل لا يمكن أن يظل دائم
التفكير . والمواهب والحواس لا يمكن أن تكون مشدودة بصفة
مستمرة . والعمل بدون راحة يشبه ملء (زنبلك) الساعة أكثر
من اللازم ، إذ أن (الزنبلك) ينكسر ، والساعة تتوقف عن العمل .
يجب أن تكون هنالك فترات استراحة وسط مشاغل الحياة ، فيها
تستريح الأعصاب المنهكة وتسترد قوتها . هنالك فكر أعمق مما
يتصوره الكثيرون فى الوصية التى تأمرنا بالاستراحة يوماً فى
الأسبوع .

لكن ليس هنالك جزء فى كيائننا يصرخ بإلحاح لطلب
الراحة مثل حياتنا الروحية . إن روح الإنسان - مثل الحمامة -
لا يمكن أن تسير بصفة مستمرة دون أن تعطى راحة لأجنحتها .
إننا لا يمكن أن نستمر فى الصعود على جبل الصعوبات الخشن أو
عبور وحل الضجر والتبرم . يجب أن تكون لنا القدرة على أن
ترقد فى المراعى الخضراء أو نمر برقة ولطف بجوار مياه الراحة .
هنالك ثلاثة أشياء لازمة لسكى نستطيع الخراف أو النفوس
البشرية أن تستريح .

الطاهرة . إن الخراف ملك له ، سلمت إليه من أبيه ، وهو وضع نفسه من أجلها .

وفي هذا الموت قُتل عدونا . كأن بطلين من أبطال الغابات وُجدا ميتين بجوار بعضهما لأن الواحد - في صراع الموت - جرح الآخر جرحاً مميتاً . على أن الله « أقام من الأموات راعي الخراف العظيم بدم العهد الأبدى » (عب ١٣ : ٢٠) . والآن هو حي ليضمن لنا سلامتنا . لقد تحمل كل ما كان ينبغي أن يتحمسه من الآلام . لقد تغلب على كل مقاومة كان يمكن أن يلتقى بها . لقد ضمن لنا خلاصاً أبدياً من سكين العدو ، من مطالب الشاموس الإلهي ، ومن نتائج خطايانا . « من هو الذي يدين . المسيح هو الذي مات بل بالخرى قام أيضاً » (رو ٨ : ٣٤) .

والآن ، أيتها النفس الخائفة الخائفة ، استريحى إن سمّية الدم التي تحملينها هي علامة أكيدة على أنك في أمان . لا يمكن أن يكون قد تحمل كل ذلك من أجلك لكي تهلكي الآن . في كل ساعات الخطر أو الخوف رددى برقة اسمه قائلة « يسوع ، يسوع » فيعزيك في الحال بحضوره وبصوته الذي تعرفه كل

(١) شعور بالأمن . إن زئير الأسد ، أو نباح الكلب ، أو وجود ولد صغير كافٍ لحرمان قطع الغنم من راحته وإدخال الرعب والفرع في قلبه . وأنا أنى لنا بالراحة طالما كنا نشعر بأننا معرضون لهجوم الأسد الزائر ؟ من ذا الذي يستطيع أن يستريح طالما كان المصير غير مستقر .

لكن الرب يسوع المسيح ، راعينا ، قد حصننا ضد كل هذه . لقد التقى هو نفسه بعدو النفوس اللدود وحطم قوته إلى الأبد . إننا لن نستطيع أبداً أن ننسى ذلك الصراع الذي قام بين الإثنين : خبث الواحد ، وصراخ ودموع وقطرات الدم التي تسببت من جبين الآخر . لم يكن مصيرنا وقتئذٍ معلقاً على كفة القدر ، بل بالأحرى كان مصيرنا هو الهدف الذي لأجله خاض الموقف في تلك الساعات الطويلة الأليمة . في إحدى السكفتين كان هنالك الهلاك الذي بلا رحمة ، وفي الكفة الأخرى كانت الرحمة تتوق بأن تخلص حتى وإن كان الثمن هو الآلام المريرة والجروح التي ستبقى آثارها إلى الأبد . وأخيراً بذل الراعي الصالح نفسه من أجل الخراف . لم يكن أجيراً جباناً . بل بذل آخر نقطة من دمايته

الخرف ، وتصفين إلى تأكيده هذا « خرافى لن تهلك إلى الأبد ولا يحفظها أحد من يدى » (يو ١٠ : ٢٨) .

« الرب حافظك » (مز ١٢١ : ٥) . « نعلم أن كل من وُلد من الله لا يخطئ بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه » (١ يو ٥ : ١٨) .

(٢) كفاية من الطعام . إن الخروف الجائع لا يمكن أن يرقد ولو دفعته إلى ذلك بالقوة . أما الراعى الذى يستطيع أن يوفر له المراعى الخضراء الغنية فإنه يتمكن من أن يجعل أشد الخراف فلقاً يرقد مطمئناً بين العشب الأخضر حيث تستقر العصافير على جزته ويطن حوله النحل .

إننا لن نستطيع أن نجد راحة طالما كان جوع النفس باقياً دون أن يجد ما يشبعه وعطشها لم يجد ما يرويه . والعجيب أن الناس بطيئون جداً فى إدراك هذا . ومع ذلك فإن البشرية تعاني من فراغ النفس الداخلى . والناس إذ يشعرون بجوعهم يحاولون عبثاً أن يشبعوه بالخرنوب الذى تأكله الخنازير . ولا يوجد ما ينزع قلق الإنسان الداخلى إلا صوت المسيح القائل « من يقبل إلى فلا

يجوع ، ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً » (يو ٦ : ٣٥) .

آه ، يا للبركات التى ننالها إذ نأكل جسد المسيح ونشرب دمه فى وقار وخشوع وشركة عميقة . هذه هى الحياة . هذا هو الشبع الأبدى . هنا المراعى الخضراء وأنهار مسراته .

يمكن تشبيه كلمة الله بالمراعى الخضراء . فيها شبع لكل نفس جائعة . عندما نأكل منها نجد كفايتنا ونبقيض عنا الطعام . وهذه المراعى لن تنضب ولن تجف . هى خضراء اليوم كما كانت يوم بدأها الروح القدس . بالرغم من تأملات جماهير المفسرين فيها ، ودراسة ربوات المسيحيين لها ، فلن يقاوم فيها المرء بمحبة وطاعة دون أن يجد فيها غذاء وقوة .

هنالك حقائق روحية كثيرة تمثلها مياه الراحة . إن يوم الرب هو مياه الراحة ، وكذلك ساعة العبادة ، وأيام العطلة الصيفية ، وأيام الانتعاش فى الحياة الروحية ، حيث يبدو كأن الشيطان قد نسى بأن يجرب . فى أوقات كهذه يحلو لنا أن نعرف بأن ذاك الذى قادنا من قبل إلى الحرب أو إلى العمل يقودنا الآن إلى الراحة . وفى بعض الأحيان ، فى وسط زحمة الحياة وضغط

مشاغلاً ، يومئذ إلينا لكي نستريح معه قليلاً فيتوفر لنا الوقت
لأكل . إنه يضع في قلوبنا أن نحفظ يوم الرب ونكون في سلام .
يجعلنا نشرب من النهر الذي بجانب الطريق ، وعند الظهر نستريح
مع قطيعه في ظل الصخرة العظيمة في أرض معيبة (إش ٣٢ : ٢) .

(٣) طاعة لقيادة الراعي . إن أرق راعٍ لا يمكنه أن يجعل
غنمه تخذل إلى الراحة إلا إذا كانت تتبعه . أما إذا تراكمت في
المسير خلفه ، أو إن ضلت عنه ، أو إن اتخذت سبلها المختلفة ، فإنها
لا بد أن نفشل معها كانت مقاصد الراعي صالحة . قال المسيح
« خرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها فتتبعنى » (يو ١٠ : ٢٧) .

إن هذا الحلك ، أى اتباع قيادة الراعي ، ضرورى جداً .
ليس عجيباً أن نفقد راحتنا إن كنا نجرى هنا وهناك متبعين
أهواء قلوبنا الشريرة . إننا نرسم لأنفسنا خططاً بدلاً من اتباع
خطته ، ونصر على تدبير أمورنا بأنفسنا ، وأيامنا تزدهم بالكثير
من تفكيرنا بالإضافة إلى القليل من فكره . إننا لا نتطلع إلى
فوق كثيراً لنرى أى طريق نسلكه وماذا يردنا أن نفعل . لهذا

نفقد راحتنا . إن أردنا أن نسير إلى ينابيع المياه الحية التى تتغذى
من الينابيع السماوية فعلينا أن نتبع الحل أينما سار .

آه ، لا تياأس من رحمة الله كأنها مستحيلة . إن الراعى الصالح
ينتظر لكي يربضك بجوار المراعى الخضراء ويسقيك جرعات
طويلة عميقة من الراحة . ثق فيه فقط . سلم إليه كل ما يعطل
راحة روحك حتى ولو كان المعطل تافهاً جداً كساعة بموضه ،
وتقبل من يده راحته الحلوة العميقة . طالبه بأن يربضك بطريقته
اللطيفة الجميلة .



« يرد نفسى »

(مزور ٢٣ : ٣)

هاتان كلمتان من أئمن ما حواه هذا المزور الذى لا يقدر بشئ. إنهما تتفقان مع اختبارات الكثيرين من أولاد الله المقتنعين اقتناعاً عميقاً بحاجتهم إلى نعمة الراعى الصالح التى ترد نفوسهم. لو أنه كان هو الوحيد الذى نعبه ، ولو كنا نطيع وصاياه دواماً طاعة كاملة سريعة لما كانت هناك حاجة لرد النفس. لكننا لا نطيع دواماً القيادة السماوية ، بل نرتد بسهولة إلى حالة الفتور والتراخي ، ولذا فمن الضروري أن نرد نفوسنا .

إن أكبر باعث للانحراف الروحى هو إهمال كلمة الله وإهمال العبادة الفردية . طالما كانت روح الإنسان متصلة بروح الله ، وطالما كان الكتاب يُدرس بانتظام وروح الصلاة ، وطالما كانت هنالك فرص مستمرة للخلة والتأملات الروحية ، فلا بد أن يتوفر بصفة مستمرة النمو فى النعمة وفى معرفة ومحبة الله .

إن كانت الأنايب الذهبية تُحفظ نظيفة (غير مسدودة) فإن الزيت الذهبى يمر منها بصفة مستمرة ليغذى شعلة الحياة المقدسة دون معطل . إننا نعلم هذا كله . لقد تذوقت قلوبنا مراراً كثيرة المنعشات الحلوة والتشجيعات المقدسة التى تنبعث من تلك الساعة الهادئة المباركة التى تُقضى فى حضرة العلى . نحن نعلم أنه لا يوجد شئ يجعل للحياة قيمة بقدر الشركة مع الله . ومع ذلك فهذا هو الشئ الوحيد الذى نميل إلى تأديته بسرعة أو إلى إهماله . وعندما نقرأ كلمة الله فإننا نقرأها كتأدية واجب ، وعندما نصلى صلاة الصباح أو المساء فإننا نؤديها بفتور شديد وبدون اكتراث وكان خيراً أن لا نصليها بالمرّة . فهل نستغرب إذاً إن كانت الحياة الروحية تضعف وتحتاج إلى يد قوية حكيمة لتردها ؟

والخطية التى لم يُعترف بها سبب آخر لسرعة ضعف الحياة الروحية وانحرافها . إن وجد هنالك سبب لعدم الاتفاق بين الأصدقاء - مهما كان تافهاً - فإنهم لا يميلون إلى أن يجتمعوا معاً . وإن اجتمعوا بدا عليهم الفتور والتخلف فى الكلام خلافاً لما كان يبدو عليهم فى بداية الأمر من الدالة وقوة المحبة ، ولا يمكن أن

تتحد القلوب إلا بعد فحص سبب الخلاف والاعتراف بالخطأ
وتفسير سوء التفاهم . وهذه الحقيقة تنطبق على علاقة النفس مع الله .
فإننا عندما نحطئ يكون هنالك بصفة عامة ميل للاقتداء بآدم
وحواء في الاختباء وراء أشجار الجنة . وهذه هي تجربة الشيطان .

كانت أسعد ساعة في ذلك النهار هي التي سُمع فيها صوت الله
يدعوها لتجديد الشركة معه والتحدث إليه ، وكان ذلك الصوت
كنسيم المساء العليل الذي يبعث انتعاشاً بعد حرارة النهار اللاخفة .
لكن الخطيئة تجعل النفس لا ترحب بفكرة إعادة الشركة مع الله .
لقد تعاملنا صراراً أن الخطيئة التي لم يُعترف بها تطرح ظلمة كثيفة
على شركتنا مع الله ، وتجعلها ثقيلة جداً ، وتجعلنا عديمي الاكتراث
بها . فنبداً بأن نستبدل القلب السليم البسيط بالقلب الملتوى ،
وتصبح صلواتنا مجرد الصلوات الشككية . وإن لم يُعترف بالخطيئة
وُترك في الحال فإن الشقة تزداد اتساعاً وتعطل الحياة كلية .

والحياة الاجتماعية العالمية مصدر آخر لضعف الحياة الروحية
وانحرافها . من المستحيل أن نصرف الوقت الطويل في الأحاديث
التافهة ، والمسامرات الفارغة ، والمزاح والسخرية والكتب العاطلة ،

وملاذات المجتمع الطائشة ، دون تعريض قداسة النفس إلى الخطر .
لا يستطيع الإنسان أن يلمس جناح الفراشة دون أن تلتصق بأصابعه
ذرات دقيقة بها . ونحن لا نستطيع أن نعيش بصفة دائمة في جو مدنية
العالم الزائفة دون تضحية الكثير من قداسة النفس وهي أثمن
مواهب الله .

طبيعي أنه إن أرسلنا الرب يسوع إلى العالم لخدمته فيه فإنه
لا بد أن يحفظنا هناك . أما إن اخترنا نحن العيشة هناك فإن حياتنا
الروحية سرعان ما تضعف وتنحدر ، كما تنفقد فتاة الريف جمال
طلعتها متى عاشت بصفة دائمة في جو المدن الخائقة .

واهمال بعض الوصايا المعينة يؤدي أيضاً إلى إضعاف الحياة
الروحية مهما كانت قوية . لو كان كل المسيحيين الذين يتمتعون الآن
بوصايا المسيح يطيعونها لتمتعت الكنيسة بنهضة قوية جداً . وقد
تلتقى ببعض المسيحيين الذين يقولون لك أنهم كانوا « يتدربون »
تدريباً عميقاً في بعض الأمور . وماذا تعني كلمة « تدريب » هذه ؟
هل تعني بأن المسيح كان يتمتعهم بوصية معينة ، وأنهم كانوا في الواقع
يقاومونه مفضلين طريقهم لا طريق الله ؟ وإن كان هذا التدريب

قد توقف فهل هنالك مبرر آخر سوى هذا؟ وهو أن الرب الرحيم تلقى منهم الرفض الصريح، ولذا فقد أصبح غير مُجد أن يلح على النفس العنيدة، ومن أجل هذا تركها؟ إنها قد تخلص «كما بنار»، لكنها لا تستطيع أن تدرك عمق محبته، ولا يمكن أن يستخدمها في أجل خدماته.

هنالك علامات كثيرة لضعف النفس وانحرافها. هناك القلق، وروح التذمر، وعدم المسالاة بمصالح ملكوت المسيح، وعجزها عن الشهادة للمسيح أو الاحتجاج ضد الخطية، وعدم ميلها إلى الاعتراف بأنها قد تغيرت عما كانت عليه من قبل، وعدم استجابتها لكلمة الله التي يركز بها، ونفورها من اختبارات الآخرين الذين يعيشون في شركة سعيدة مع الله. وكما نلتقي ببعض أشخاص مصابين بأمراض خطيرة لكنهم يرفضون أن يعتقدوا بأنهم كذلك، ويرفضون أى اقتراح يقدمه أصدقاؤهم لاستدعاء الأطباء لعلاجهم، كذلك نرى بأن إحدى العلامات لانحطاط الحياة الروحية وانحدارها هي محاولة نبذ كل فكرة توحى بأن هذه هي حالتها حتى ولو كانت جرثومة المرض تعمل بشدة للقضاء على الحياة.

بعد ذلك يأتي الاعتراف الأليم - الذى يُقدم بعد مرور السنين - بأن الحياة قد تغيرت عما كانت عليه. وبعد ذلك يسلى الاستنتاج الأسيف بأن الأمور قد تعقدت ولا يمكن إصلاح الحياة الآن.

في مثل هذه الحالة ليس أمامنا إلا أن نلجأ لنعمة المخلص التي ترد النفس. الطبيعة مليئة بعمليات تجديد كثيرة. إن حدث تشقق في جانب الجبل بدأت الطبيعة تملأه في الحال بالحشائش والأعشاب. إن حدث جرح في الجسم وتصيب منه الدم بدأت الطبيعة تملأ موضع الجرح حتى يعود الجلد إلى حالته الطبيعية. وحتى إن حدثت ثغرة في الأسرة بفقد أحد أعضائها الذي كانت حياته تملأ البيت، وصارت وفاته خسارة كبيرة للأسرة لا تعوض، بدأ الزمن بقوته الشافية يصحح الوضع ويملاً الثغرة.

هكذا الحال في دائرة الحياة الروحية، فإن روح الله يرف بصفة مستمرة فوق قلوب البشر ليعمل عمله المبارك، عمل الإصلاح ورد النفوس. عندما يضل خروف من القطيع فإنه يسعى وراءه حتى يجده، ويرده إلى موضعه بين باقي الخراف. عندما تُفقد قطعة واحدة من مجموعة جواهر تاجه، عندما تُفقد لؤلؤة واحدة من

صدره القضاء ، فإنه لا يستريح حتى يردها إلى موضعها . عندما يذهب ابن واحد إلى الكورة البعيدة فإن فرحه يبطل حتى يعود .

أيها المخلص الرحيم الشفوق الرقيق القلب ، ما أشد هفتك في متابعة هذه الخدمات الرحيمة لأبنائك الضعفاء الذين لا يستحقون منها شيئاً .

المسيح يستخدم خدمات كثيرة لرد النفوس . قد تكون أحياناً كلمة من صديق أو خادم الإنجيل . أو قد تكون ترنيمة تحمل رائحة عطرية من قلب طاهر وتحدث عن ماضٍ سعيد . أو تكون عبارة أو جملة في كتاب ديني . كثيراً ما كانت هذه الخدمات على هذا المنوال . قد تكون بعيداً في الريف ، تسير وحيداً كثيراً ، فتشرق أشعة الشمس فجأة ، أو تستمع إلى ترنيمة جميلة ، أو تحس فجأة بتأثير نعمة الله التي تمس أعماق أوتار القلب وتلينه وتدفعه إلى التوبة والصلاة . ألا يماثل هذا ما اختبره بطرس عندما ألقى عليه المسيح نظرة دفعت به إلى أن يخرج خارجاً ويبكي بكاءً مراراً ، وكانت هي الخطوة الأولى لرد نفسه ؟

على الذين يريدون أن يفهموا كل فلسفة رد النفس أن يقرأوا الرواية العجيبة عن الطريقة التي بهارد الراعي الصالح نفس رسوله الذي أنكره . كل ما نستطيع عمله هنا هو أن نعدد الخطوات التي اتخذها السيد في هذه العملية . إنه صلى من أجله ، وأنذره محذراً . ومن وسط الجماعة القاسية القلب التي احتاطت بالسيد ومثلت به « التفت ونظر إلى بطرس » ، لا بغضب ، ولا بقسوة ، بل بأرق علامات التوبيخ . ثم حمل الملائكة رسالة خاصة ليأمرُوا النسوة لدعوة بطرس بين الباقيين في صباح يوم القيامة ، مبيناً بذلك كيف كان يفكر فيه كل وقت آلامه . والتقى به وحيداً يوم قيامته وسمح له بأن يعترف بحزنه المرير بحرية لا يعطها أى واحد إذ كان وحيداً . وأعطاه فرصة للاعتراف بمحبته له ثلاث مرات لكي يغسل خطية الانكار المثلثة . وإيس هذا كله بأكثر مما يفعله لأى واحد منا .

آه ، لا تدع الأيام أو الأسابيع تمر دون أن تطلب نعمته التي ترد النفس . أطلبها الآن - كما أنت - واثقاً فيه كل الثقة . إذ تكون ذكريات الخطية لا زالت حديثة العهد تطلع إليه وأسرع في طلب المغفرة ، وفي نفس اللحظة توصل إليه بأن يعيدك سريعاً إلى نفس

قيادة الراعى

« يهدينى الى سبل البر من أجل اسمه » (مز ٢٣ : ٣)

« يهدينى » . يا لها من حلقة اتصال عجيبة تلك التى تصل بين المتكلم وبين من يتحدث عنه . يبدو بأن الهوة بين الراعى فى مجده وبين خروفه الضعيف للسكين هوة لا قرار لها . لكننا نرى عليها قنطرة تصل بين طرفيها ، هى الكلمة الحلوة الرقيقة « يهدينى » . كما أن الراعى فى الشرق يتقدم خرافه دواماً ليتبين المراعى الخضراء ويتنكب عن الطريق الصخرى ، هكذا أيضاً يسوع فإنه يسير دواماً أمام النفس التى تثق فيه وتتكلم عليه وتحميه . ومهمتنا هى أن نحرص على أن تكون المسافة بين خطواته وخطواتنا قليلة جداً .

يجب أن نرتضى قيادته . هناك تهور طبيعى فينا يدفعنا إلى الأمام لكي ندبر لأنفسنا . أليس هذا هو الحاصل فعلاً ؟ ومن هذا ينشأ الكثير من التهيج والغضب والتذمر والفشل فى الحياة . إننا نتوهم بأننا نستطيع أن ندبر لأنفسنا تديراً أفضل من تديره المسيح .

المكان الذى كنت تحتله قبل سقوطك . وحتى إن كنت لا تشعر بفرح استجابة الصلاة تهلل فى ثقة الإيمان وردد القول « يرد نفسى » .

نعم ، وللذين يقدمون هذا الطلب يوجد وعد آخر يزيد الأول تأكيداً وهو هذا : « وأعوض لكم عن السنين التى أكلها الجراد » (يوثيل ٢ : ٢٥) ، فيعيد إلينا الفرص والامتيازات التى كان يبدو بأننا قد خسرتها إلى الأبد .



ونتوهم بأنه قد تكون هنالك أشياء خارجة عن دائرة إرادته تستحق أن نسعى إليها . إننا نميل أن نسبقه في المسير ، أو نتباطأ وراءه ، أو ننحرف إلى اليمين أو إلى اليسار في طلب المراعى . وقد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لكي نتعلم أن مكان الأثمار والبركة هو في اتباع قيادة المسيح . ونحن نميل إلى اتباع ما تمليه علينا أهواؤنا بدلاً من أن نتساءل عن المكان الذي يريدنا المسيح أن نكون فيه ، أو المكان الذي يريد المسيح أن يقودنا إليه .

يجب أن يكون مبدأنا الوحيد في الحياة هو أن نكون واثقين . إننا نتبع الراعى بثبات أينما سار . لقد أكد لنا بأنه « متى أخرج خرافه يذهب أمامها والخراف تتبعه » (يو ١٠ : ٤) .

هذه الكلمات تضع على إيماننا التزامات كثيرة . قديماً رأى الرسل يسوع أمامهم وهو صاعد إلى اورشليم ، فتبعوه في خوف . أما الآن فهذا مستحيل . فإننا لا نستطيع أن نراه بالجلسد . إننا نحب ذاك الذى لم نره . ونتبع ذاك الذى لا نستطيع أن نبصره . لكن إن كان لا يمكن أن نرى كالمهواء ، أو كالجاذبية التى بها تقود الشمس الأجرام السماوية فى الفضاء ، إلا أن قيادته واضحة جداً يستطيع أن يدر كها القلب المحب الأمين .

ونحن نستطيع أن نتبين قيادته بطرق كثيرة . نتبينها فى مثاله الذى تركه لنا ، وفى توجيهات نصائحه المتضمنة فى الأنجيل ، فى نصيحة صديق ، فى رسالة يوجهها إلينا فى عظة ، فى آية ترددها الذاكرة . ونتبينها كذلك فى إيماءات الروح القدس الداخلية التى لا نعلم متى تأتى ، ولا إلى أين نحملنا . فى بعض الأحيان يفتح أمامنا الطريق بكيفية عجيبة مع أنه كان يبدو مغلقاً ، كما لو كانت سفينة تشق طريقها وسط مجموعة من الصخور فتجد أخيراً أمامها مياهاً صافية بعيدة عن الصخور التى تهددها . وفى أحيان أخرى يتملكنا هاتف غريب ، وبعد تفكير سليم وصلاة عميقة نرى أنفسنا مدفوعين لاتباعه .

وهذه هى النصيحة الوحيدة التى نقدمها بشدة : إن كنت لا تعرف أى طريق تسلكه فانتظر حتى تشعر بقيادة الراعى الصالح . إن حياتك تهمة جداً ، وهو يعنى بكل خطوة تخطوها . ومن الخطأ الفاضح أن تنصرف دون أن تكون متأكداً مما يريدك أن تفعله . وإن كنت لم تتأكد بعد من ذلك كان هذا دليلاً على أن الوقت لم يأت لكى تتحرك . إنظر فى المكان الذى أنت فيه . وعندما

تنتظر فإنك تبين الطريق واضحاً ، ولن يتأخر الإعلان لحظة واحدة .

آه ، لا تقل بأنك لا تستطيع أن تعرف إرادته . لقد كنت دائماً بطيء الفهم ، وكنت تتخبط في تفكيرك لا تستطيع أن تبين أبسط الاتجاهات . لكن بلاذة الذهن لا تهتم المسيح كثيراً . هو يستطيع ، هو يريد ، أن يستخدمك كما أنت . إن كان لا يقدر أن يجعلك تفهم بهذه الطريقة فإنه يقدر أن يجعلك تفهم بغيرها . ومهمة الراعى هى أن يقود الخراف المطيعة قيادة صالحة . والشيء الوحيد الذى يعوق قيادته هو بلاذة القلب والإرادة . إننا كثيراً ما نرفض انتظار الوقت الذى عينه هو ، وكثيراً ما تهوّر متعجلين الوقت .

فى الآية السابقة يصرخ المرنم بأن الراعى يوردنا بجوار مياه الراحة (أو المياه الهادئة) . ولعل هذه تشير إلى أنه عندما تتمزق الأقدام وتتوتر الأعصاب بسبب تسلق الجبال الصخرية ، أو عندما يكون الطريق وسط أودية عميقة رطبة تكتنفها غابات كثيفة وصخور قاسية ، يكن الخروف حينئذ سائراً حسب هواه بعيداً عن قيادة صاحبه الرحيمة . ولذلك يعود المرنم إلى التشبيه ثانية ويخبرنا

بأن هنالك طرقاً أخرى يقودنا الراعى عن طريقها إلى الوطن . لا بجانب المياه الهادئة دوماً ، بل فى بعض الأحيان بجوار المياه المتدفقة المندفعة . لا فوق الحشيش الأخضر دوماً ، بل فى بعض الأحيان فى فوق الطرق الجبلية . لا فى الشمس المشرقة دوماً ، بل أحياناً فى وادى ظل الموت . لكن مهما كان الطريق فهو الطريق القويم ، هو الطريق المؤدى إلى الوطن .

وقيادة المسيح هى دوماً فى « سبل البر » . وسبل البر هذه هى الطرق القويمه . عندما تتطلع إليها فيما بعد من فوق الارتفاع الذى قادتنا إليه ندرك أنها حقاً كانت طرقاً قويمه .

قد تتردد فى قبول هذا . قد تقول بأنك لا تقدر أن تشعر بأن طرق الله معك كانت قويمه . لأن غموضها يربك عقلك . ويكاد غموضها وصلاتها ومطالبها القاسية تطوحك إلى اليأس . وأنت إذ تعترف بهذه المشاعر لله فإنه لا يتعجب منها ، لأنه يشفق علينا جداً ، « لأنه يعرف جبلتنا . يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٤) .

حذار من أن تحكم على طرق الله وهى لا تزال فى سبيل الإعداد والتمهيد . إنْتَظِرْ حتى يكمل رسم الخطة . إنْتَظِرْ حتى يكمل

صنع قطعة القماش فستطيع أن ترى وجهها مزر كشاً جميلاً . إنْتَظِر
حتى تترك الوادى وتُصعد إلى قمة الجبل . إنْتَظِر حتى يدعوك الله
ويكشف لك عن مقاصده في نور الأبدية .

وفي نفس الوقت لتكن لك ثقة في الله كل « آثاره تقطر دسماً »
(مز ٦٥ : ١١) . « كل سبل الرب رحمة وحق » (مز ٢٥ : ١٠) .
إن كان صحيحاً أنه يجعل « في المياه القوية مسلكاً » (إش ٤٣ : ١٦) ،
فإنه صحيح أيضاً أنه « يهدهم طريقاً مستقيماً ليذهبوا إلى مدينة
سكن » (مز ١٠٧ : ٧) . ينبغي أن لا نحكم على الله طالما كان عمله
لم يكمل بعد . لنصبر حتى تأتى النهاية وتبرر الطريق الذى سلكناه .
وعندما يحل فجر الأبدية سوف نقبين بأن الله لم يكن ممكناً أن
يقودنا في طريق آخر أكثر أمناً من الطريق الذى سلكناه .

ليت لنا الإيمان الذى به نستطيع في كل ظرف ، في كل تجربة ،
في كل محنة ، في كل ضيق ، أن نتطلع إلى وجه قائدنا ونقول : هذا
هو الطريق القويم يا راعى الخراف الأعظم ، فقدنى إلى النهاية .

قدنى إلى النهاية يا عمانوئيل

فوق المستنقعات ووسط السيول

فوق الصخور وفي السهول

حتى ينتهى الليل

لكننا لسنا في حاجة إلى أن نطلب منه هذا . فإنه ملتزم بإتمامه
من أجل اسمه العظيم . « يهدينى إلى سبل البر . من أجل اسمه » .
أذكر كيف كان يشوع غيوراً على كرامة ومجد الله . وكَم من
القديسين ردّدوا كلماته العظيمة ولا زالوا يرددون « ماذا تصنع
لاسمك العظيم » (إش ٧ : ٩) . يدل اسم الله على كرامته وصفاته .
وعندما نطق النبی بهذه الكلمة كان يقصد أن يقول : إن كرامتك
وصفاتك مهددة بالخطر ، وإن قيادة القديسين الصحيحة يضمنها
ثبات صفاتك وكرامتك .

ما هو اسمه ؟ « ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً
رئيس السلام » (إش ٩ : ٦) .

« عجيباً » إذاً فلنا أن نطالب بعمل قوته العجيب لكي يهيم
على كل شىء فيسيره لخيرنا .

« مشيراً » . ولنا أن نعتمد على حكمته التى لا تخطئ لكي
ترسم خطة تملأ السماء إعجاباً .

وادی ظل الموت

« أيضاً إذا سرت في وادی ظل الموت لا
أخاف شراً لأنك أنت معي » (مز ٢٣ : ٤)

في كل الكتاب المقدس لا توجد آية مألوفة أكثر من هذه .
لا توجد شخصية في الكتاب المقدس قد تركت تأثيراً أكثر بقاء
ودواماً من تأثير هذه الآية . إن الصورة التي تصور نهاية حياتنا
بوادٍ مظلم في نهاية طريقها المنير لا زالت عالقة بذاكرتنا منذ تعلمنا
أن نردد هذه الآية في الصغر . ولقد كانت هذه الآية آخر ما نطق به
الملايين من القديسين ، ولعلها سوف تكون آخر ما ينطق به
الكثيرون ممن يقرأون هذه الكلمات ، إلا إذا أتى الرب أولاً
وأعفينا من اجتياز وادی الموت ، وخطفنا لملاقاته في الهواء .

يخيل إلىّ بأنني أرى ذلك الوادی الآن . فالراعي يقود خرافه
نحو حظيرتها وسط مراعي خضراء غنية وأمكنة هادئة مريحة .
وفجأة يبدأ الطريق في الانحدار إلى وادي سفلي . على أحد الجانبين
هوة عمودية متصلة بقاع النهر الشديد الانحدار حيث تندفع المياه

« إلهاً قديراً » . إذاً فهو مطالب بأن لا يعمل شيئاً لا يتفق
مع كماله الإلهي ومجده الإلهي .

« أباً أبدياً » . إذاً فهو مطالب بأن لا يتصرف بأقل من
رقة الأب مع بنييه .

« رئيس السلام » . إذاً فهو مطالب بأن يتصرف وفق حلاوة
ومحبة قلبه ، وفق ذكريات صليبيه ، وفق بركة سلامه .

« من أجل اسمه » . يالها من حجة قوية . وبها نتحول من
النظر إلى قلب الإنسان السكي ننظر إلى قلب المسيح ، واثقين بأنه
لا يمكن أن ينكر نفسه ، أو يتنكر لصفاته ، أو يفعل شيئاً لا
يتناسب مع محبته الرقيقة لمن مات من أجلهم .

أيها الراعي العجيب ، أخبرنا عن اسمك إذ نتقدمنا وتقودنا
عن طريق جثسياني والجلجثة إلى بستان القيامة وجبل الصعود .
وإذا تلتقي ردك الممتزج بالمحبة سوف نثق فيك ونبتزع منا كل
خوف ، سوف نقبلك أينما سرت ، ونؤمن بأننا سوف نجد بأنه لن
تكون خطوة واحدة غير متفقة مع قيادتك الخليقة بقلب الله المحب
الحكيم القوى الرقيق .

صوته يُسمع في دائرة بيته إذ يدخل البهجة في القلوب التي كانت تنتظره والتي لم يكل فرحها إلا بمجيئه .

في دمشق حارة ضيقة طويلة مظلمة تنتهي بسرداب . قامت هناك هذه الحارة أجيالاً طويلة يصعد السائح إليها ويحتازها . لكنه إذ يعبرها تجدد فناء واسعاً لقصر شرقي تتلأأ فيه الأنوار ويتمتع بنور الشمس البهيج . هذه تمثل موت المؤمن . قيل عن المسيح أنه « بكر من الأموات » (كو ١ : ١٨) . الموت هو الولادة من سجن وظلمة الأرض إلى نور وحرية الحياة السماوية . هو عملية جسدية تؤثر على الجسد ، لكنها لا تمس مواهب أو صفات النفس . عندما « تغرب عن الجسد » ، نستوطن عند الرب » (٢ كو ٥ : ٨) .

إنه ليس بقاء في حالة لا شعور ، بل هو خروج ، ممر ، اجتياز وادٍ قصير ، شمس مشرقة في هذا الجانب ، وشمس مشرقة في الجانب الآخر ، تتوسطهما فترة ظلام لا تدوم إلا لحظة واحدة .

الموت باب للحياة : إن أحببنا ليسوا أمواتاً ، بل هم الأحياء الذين اجتازوا إلى حضرة الملك عن طريق الموت . وعندما نقف بجوار أعزائنا إذ يدعون إلى هذا الخرج الذي يتحدث عنه الرسول

بشدة وتكسر على صخور مسننة . وعلى الجانب الآخر يرتفع الجبل بأشجاره الظليلة . لا يزال الطريق ينحدر إلى أسفل إلى أن يصل إلى ممر عميق وضيق مسقف بصخور تكاد تلمس رأس من يمر فيه ، أما الأشجار فإن فروعها متصلة بعضها ببعض . وهذا الممر مظلم جداً حتى في وقت الظهيرة . والذي يلبث هنالك قليلاً بعد الغروب تعثره قشعريرة شديدة . وبطول ذلك الممر تكمن الوحوش المفترسة . هكذا هو وادي ظل الموت ، الذي اجتازه مرة الراعي العظيم وحيداً ، والذي عن طريقه يقود خرافه الآن إلى الوطن . لقد اجتازته من قبلنا مقدمة الصفوف ، ويحتاز غيرهم الآن ظلاله المظلمة ، وسوف نلحق بهم نحن أيضاً عن قريب .

هذه الصورة تعطينا فكرة معزية عن الموت : إنه ليس حالة ، ليس حالة دائمة ، وليس مكاناً نسكنه . بل هو ممر ، انتقال ، وادٍ نجتازه . قد يكون الوادي مظلاماً وموحشاً وتكتنفه شرور كثيرة ، لكننا لا نقيم خيمتنا هناك ، بل نجتازه إلى راحتنا . عند الموت تغادر الروح الجسد وتخرج منه ، كما يغادر الصانع مصنعه في المساء ويغلق أبوابه ويذهب إلى بيته تاركاً إياه مهجوراً وهادئاً ، لكن

بولس (٢ بط ١: ١٥) نستطيع أن نخطبهم بكلمات العزاء والرجاء
« أخرجى أيتها النفس المسيحية من هذا العالم باسم الله الضابط
الكل الذى خلقك ، وباسم يسوع المسيح ابن الله الحى الذى تألم
من أجلك ، وباسم الروح القدس الذى انسكب من أجلك » .

ومع ذلك فالوادى مظلم : إن آلام الجسد كثيراً ما تسبب
انقباض الروح وتطرح عليها ظلمة قد تُنسب خطأً إلى أسباب
روحية . ليس هيناً أن نغادر الأحياء - الذين رافقونا طول مرحلة
الغربة - بدون حزن . وعلاوة على ذلك فهناك شعور بالدهشة .
لأنه بالرغم من أن الآلاف يموتون كل ساعة إلى أن كل شخص
يموت وحيداً . كما أن عدونا اللدود ينتهز فرصة ضعف الجسد وقت
الموت ويكسب عناصر الخوف والفرع أمام أنظارنا وهى تدبيل .

وعلى أى حال فإن الموت ليس أمراً هيناً . قد يقابل الشخص
المتهور الموت دون تأثر ، ليس فى موته شذائذ ، وشجاعته ثابتة .
لكن نظراً لإحساسات الروح الرقيقة فمن المستحيل أن تغادر
الشاطئ . وندخل البحر فى ظلمة سحب الليل دون الشعور بشيء
من الرهبة . وخير تعبير له هو « السير » : « إن سرت فى وادى

ظل الموت » .

والموت فى أسوأ حالاته ليس إلا ظلاً : هو « وادى ظل
الموت » . المسيح لقي مادة الموت ونحن لا نلتقى إلا بظله . والوحش
قد ترعت عنه أسنانه وأظافره . إن مسيحننا أباد ذاك الذى له
سلطان الموت أى إبليس ، وأعتق أولئك الذين خوفاً من الموت
كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية (٢ : ١٤ و ١٥) . وهو
« أبطل الموت » (٢ : ١ : ١٠) . ونحن الذين نتبعه نستطيع
أن نصرخ « أين شوكتك يا موت » (١ كو ١٥ : ٥٥) . آه ،
إن الحية لدغت الراعى الصالح لدغة الموت ، وتركت لدغتها فى
الصليب الذى مات عليه .

إن الظل يماثل جسمه تماماً ، لكنه ليس فى حد ذاته مؤذياً .
فظل الكلب لا يمكن أن يعض . وظل الجبار لا يمكن أن يقتل .
وظل الموت لا يمكن أن يهلك . يقول النبي أن الموت نقاب يغطى
به وجه كل الأمم (إش ٢٥ : ٧) . لكن النقاب لا يؤذى . علاوة
على هذا إنك لا تستطيع الحصول على الظل إلا إن كان هناك نور
منير فى الجبهة الأخرى . والظل وقتى ، أما النور فأبدي ، لأن « الله

لكن هذا التعبير يمكن أن يمثل اختبارات أخرى غير الموت :

إننا كثيراً ما نجتاز أودية مظلمة في طريقنا إلى بيتنا الأبدى . إن الطريق إلى أورشليم السماوية تكتمفه أودية « البكاء » حيث يكثر البكاء وتحول الدموع إلى ينبوع (مز ٨٤ : ٦) . إن صاحب الرؤيا - في وصفه لسياحة المسيح - يضع وادي الظل في منتصف طريقه . وبين البيت الجميل وبين سوق الأباطيل نرى وصف هذا الوادي الذي لا يمكن أن يكون قد كتبه إلا شخص جاز دروبه :

« وإذ أتى الصباح تطلع إلى وراء ، لا رغبة في الرجوع بل لكي يرى في نور النهار مقدار الأخطار التي جازها في الظلام . فرأى - بوضوح أكثر - الحفرة على الجانب الواحد والبالوعة على الجانب الآخر . ورأى أيضاً كيف كان الطريق بينهما ضيقاً جداً . ورأى أيضاً الجن والغيلان والتنانين في الحفرة ، ولكن عن بُعد ، لأنها بعد طلوع النهار لم تعد تقترب . إلا أنها ظهرت له كما هو مكتوب : « يكشف العمائق من الظلام ويخرج ظل الموت إلى النور » (أيوب ١٢ : ٢٢) .

إننا نجتاز أودية ظل كثيرة قبل أن نصل إلى الوادي الأخير :

وعندما نحس بظلمة الظل تضغط على النفس ينبغي أن نفحص أنفسنا لئلا يكون السبب ناشئاً من إهمالنا أو من خطيئتنا . إن تبين أن هذا هو السبب فإننا في اللحظة التي نعترف فيها بتقصيرنا أو بخطيئتنا نخرج من الظلمة إلى النور . وإن لم يكن هذا هو السبب - على قدر ما تصل إليه معرفتنا - فلنتشجع ولنتقدم إلى الأمام . كل خطوة قد رسمت لنا من قبل ، كما خطاها غيرنا قبلنا . والله يختبرنا ليرى إن كنا نستطيع أن نشق فيه في الظلام كما في النور ، وإن كنا نلزمه بنفس الولاء إذ نسير في الظلام كما كنا نسير معه في النور .

هنالك قصد صالح في كل أودية الظل هذه . إنها تمتحن النفس لمعرفة صفاتها . وهي تكشف مواطن الضعف فيها . وهي تجعلنا نتبع الراعي عن قرب لئلا نضل عنه . وهي تعلمنا أن نعرف قيمة العصا والعكاز أكثر مما كنا نعرف من قبل . فطوبى لمن يؤمنون وإن كانوا لا يرون ، وطوبى لمن يقبلون بالرضا أن يجردوا من كل أفراسهم ومسراتهم وتعزياتهم إن كانت هذه هي إرادة الراعي ، طالما كانوا لا يزالون يستمعون صوته ، وطالما كانوا يدركون أنه قريب .

إصنع إلى تصريح النفس التقية الممتلئة شجاعة ، إذ تفتخر بعدم خوفها: «لا أخاف شراً». «لا خوف في المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج» (١ يوحنا ٤ : ١٨) . لا يستطيع أى شئ آخر أن يفعل ذلك . قد تتكلم ضد الخوف ، وتهزأ به . قد تسعى لتجنبه ، لكن ذلك كله دون جدوى . إن أردت أن تغلب عليه فيجب أن تطرده بالثقة التي تنشئها المحبة . قد يدخل الرجل بيته متعباً وجائعاً جداً يريد أن يلتهم الطعام التهاماً ، لكنه إذ يدخل ويعلم أن ابنه اتقابه حتى مفاجئة ومشرف على الموت فإنه في لحظة ينسى جوعه ، وفي محبته الملتهمه لابنه وحزنه الشديد ينحنى على جسمه ويسرع ليمرر شفتيه المحمومتين بقطرات من الماء . هكذا تتلاشى العواطف الصغرى في النفس أمام العواطف الأسمى . وهكذا يحدث أن أكثر الأشخاص جبناً وضعفاً عندما يشعر برفقة الراعى الصالح له يستطيع أن يترجم إذ يمرر الظلام ، وتنتعش روحه ، وتمتلى قوة وحيوية وشجاعة ، ويتهلل قائلاً « إذا سرت في وادى ظل الموت لا أخاف شراً » . « الله لنا مآجاً وقوة . عوناً في الضيقات ووجد شديداً . لذلك لا نخشى ولو ترحزحت الأرض ولو

انقلبت الجبال في قلب البحار » (مز ٤٦ : ١ و ٢) .

حسن جداً أن نقول « في يوم خو في أنا عليك أتسكل » (مز ٥٦ : ٣) ، وأفضل من ذلك أن نقول « هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب » (إش ١٢ : ٢) .

الحزن والموت يجعلان حضور المسيح يقينياً : هل لاحظت تغيير صيغة الخطاب في هذه الآية من الغائب إلى المخاطب . إلى الآن كان المرنم يتحدث عن الله بصيغة الغائب ، أما الآن - إذ ينزل في الظلام - فإنه يزداد اقتراباً من القائد والمرشد الإلهي ، ويتحدث إليه في همس قائلاً له « لأنك أنت معي » . في المراعى الخضراء كان يكفي أن يقول عنه « هو » ، أما الآن فالحاجة تدعو إلى زيادة الاقتراب في الحديث . عندما تسير الأمور معنا سيرها الحسن نكتفى بأن نتحدث عن الرب ، ولكن عندما يكفهر الجو ويظلم نسرع في الالتجاء إليه مباشرة . إن الطفل الذي كان يلعب في البيت ويلعب تراه يركض مسرعاً إلى حضن أبيه إذا عصفت العواصف وأرعد الرعد . بهذه الكيفية تصبح ساعة الموت ساعة الشركة العميقة مع الله والتمتع بحضوره .

تعزيات العصا والعكاز

« عصاك وعكازك هما يعزيانني » (مر ٢٣ : ٤)

مهما اختلف وادى ظل الموت في اختباراتنا الروحية فلا شك في أن النفس التي تشعر بالوحدة والوحشة أثناء اجتيازه نحس بحاجة المساسة إلى التعزية . من أول صفحة في الكتاب المقدس إلى آخر صفحة لا توجد فكرة أكثر تكراراً أو أكثر تعزية من الفكرة التي تحملها هذه الكلمات « عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم » (إش ٤٠ : ١) . والواقع أنه يبدو كأن الله الأزل قد أخذ على عاتقه مهمة تعزية شعبه كما تعزى الأم وحيدها (إش ٦٦ : ١٣) .

كل تعزية حقيقية صادرة من الله بعمل الروح القدس الذي ذكرت تعزياته بصفة خاصة في (أع ٩ : ٣١) . وعلى كل الذين يريدون أن يختبروا تعزيات الله أن يقرأوا كلمة الله بانتظام « حتى بالصبر والتعزية بما في الكتب يكون لهم رجاء » (رو ١٥ : ٤) .

في بعض الأحيان يبدو حقاً أن الله يضعنا في ظروف ضيقات

في بعض الأحيان يكون الظلام كثيفاً جداً بكيفية لا تسمح لنا برؤية المسيح . لكن الإيمان يكون دواماً وثباتاً بأنه موجود ، لا بدليل الإحساس أو الشعور بل لأنه قال « لا أهملك ولا أتركك » (يش ١ : ٥) وهو لا يمكن أن ينقض كلامه . هو لم يتركنا وحدنا . هو يتطلع إلينا برقة لا يعتورها الضعف . قد تحجبه الأعماق عن أبصارنا ، لكن لا موت ولا حياة ، ولا علو ولا عمق ، تقدر أن تفصلنا عن محبته لنا الثابتة الأمانة . نعم ، « فإن الجبال تزول والآكام تنزعزعا أما إحسانى فلا يزول عنك وعهد سلامى لا ينزعزع قال راحمك الرب » (إش ٥٤ : ١٠) .

« كالظلام هكذا النور » لديك أيها المسيح (مز ١٣٩ : ١٢) ، يا من دست ظلمة جثسيانى والجحشة الكثيفة وحدك . لكنك أنت تعرف الطريق لأنك جزته . إنك قد جزت الوادى وحيداً لكي لا نكون نحن وحيدين . أنت دست المعصرة لكي يستطيع كل واحد من أولادك الضعفاء في كل الأجيال أن يترنم بهذه الكلمات المعزية : « لا أخاف شراً لأنك أنت معي » .

خاصة لكي يظهر لنا مصادر تعزياته اللانهائية ، كما نخرج في ظلمة الليل لكي نرى النجوم .

على أن النقطة الهامة التي تبرزها لنا هذه الكلمات هي أن الله القدير ، راعينا الخنوع يعزينا بعصاه وعكازه . وكيف يمكن لهاتين الآلتين اللتين يبدو أنهما تشيران بالأحرى إلى التأديب ، كيف يمكنهما أن تجلبا تعزية للمؤمنين الجربين ؟ هذه هي النقطة التي نريد إيضاحها بنعمته ، ونبتهل إلى إله كل تعزية أن يعلن لنا مصادر جديدة للتعزية لكي نستطيع أن نعزي الآخرين بالتعزية التي نتعزى بها نحن من الله .

ما هي عصا الراعى ؟ بيقيناً إنها رمز لقوته المدافعة . هي الصولجان الذي يحمله كالملك الراعى الأعلى . هي السلاح الذي يضرب به أعداءنا ، حتى وإن كان ثقيلاً علينا للتأديب . عندما يجتاز الراعى بغنمه أراضٍ صخرية أو أودية ظلييلة حيث تكمن الوحوش أو تختبئ اللصوص في الكهوف المظلمة ، فإنه يحتاج إلى عصا ثقيلة لكي يضرب بها - ضربة الموت - الأسد أو الدب أو اللصوص الذين يهددون سلامة غنمه . ألا يمثل هذا نعمة المسيح التي

بها يحميننا ؟ فإنه ساهر أبداً ليدفع عنا كل أذى يهددنا ، سواء كان صادراً من رئيس سلطان الهواء ، أو من أعدائنا من البشر الذين طالما أشار إليهم المرغم إذ كانوا أمامه بصفة مستمرة ، وهم أمام كل واحد منا كذلك .

كثيرون ممن يقرأون هذه الكلمات يقضون كل حياتهم تحت ظلال خوف شديد . إنهم يخشون هبوب التجربة التي يشعرون في أنفسهم أنهم ضعفاء أمامها كأوراق الشجر الذابلة أمام الريح العاصفة . إنهم يخشون أن يصبحوا يوماً ما فريسة الأسد ، أو يقعوا في يد عدو شديد الشكيمة مثل شاول الملك . ليتهم يعهدون مسئولية حفظ نفوسهم ليدفادهم الأمين ، واثقين أنه قادر أن يحفظهم في طريقهم وفي اضطجاعهم « فيسكنون في البرية مطمئنين وينامون في الوعر » (حز ٣٤ : ٢٥) . فالراعى يسير أمام الخراف محطماً كل مقاومة بقوة لا تقهر . والله نفسه يسير خلف خرافه يحميهم من كل هجوم من الخلف .

أيتها النفوس الجبانة الخائفة من كل شر روحى وزمنى ، كالأطفال السائرين في طريق ضيق مظلم خائفين لئلا يلتقوا بعفريت

لكنها مكتوبة في السماء . قد تكون بيوتنا وضيفة وحفيرة بين
قصور العطاء ، لكننا لنا في السموات بيوت أبدية غير مصنوعة
بأيدي بشرية (٢ كو ٥ : ١) . قد تكون دائرة خدمتنا محدودة ،
وقد يكون عملنا لا يزال مبتدئاً بحفر الأساسات ، والشقة واسعة
جداً يبنينا وبين إكمال البناء ، لكننا في نظر الله كالكوكب .
قد نحسب في نظر الناس كالتراب الدقيق في كفة الميزان ، كفتيلة
مدخنة ، أو كقصبة مرضوضة ، لكننا في نظر أبينا السماوي
نحسب كالألوهة ثمينه .

قيلت لسببي بابل مرة بضع كلمات تنطبق علينا في هذه الناحية .
فإنهم إذ اجتمعوا ليلاً عند مياه بابل علقوا أعوادهم على الصفصاف ،
فجرت مياه النهر الجارية من تحتهم ، وبكوا عندما تذكروا أطلال
أورشليم المحبوبة . وعندئذُ سُمع في وسطهم صوت النبي يأمرهم
بأن يرفعوا إلى العلاء عيونهم وينظروا إلى ملايين النجوم ، ثم
ذكرهم الصوت بأن الله بعظمة قدرته هو الذي دعاها كلها بأسماء .
وبعد ذلكُ سُمعت هذه الكلمات : « لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم
يا إسرائيل قد اختفت طريقى عن الرب وفات حقى إلهى ؟ »

في كل منحنى أو بشيء مزعج ، خائفين حتى من صوت النسيم
الليل ومن رؤية أى شيء تقع عليه أبصارهم ، ليتكم تدركون بأن
الله يعنى بكل من يتكلمون عليه . إن الأمر الوحيد المطلوب منكم
هو أن تلقوا عليه مسئولية حفظ حياتكم على أساس أنه هو حارسكم
الوحيد والمتكفل بكم سواء في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى .
ينبغي أن نتلقى تعزية من عصا الدفاعة التي للرأى العظيم ، لأنه
مكتوب « خرافي لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي »
(يو ١٠ : ٢٨) .

وما هو العكاز ؟ حرى بنا أن ندعوه عصا الرعاية الذي
للرأى ، وهو عادة منحن في أحد طرفيه . إنه لا غنى عنه للرأى
كالجراث للحراث . تحته تمر الخراف واحداً فواحداً لإحصائها .
وبه يحفظها الرأى من التيه أو يسحبها لإخراجها من الحفر التي قد
تسقط فيها . وبه أيضاً يؤدبها عندما لا تطيعه . في كل من هذه
الحقائق تعزية لأبناء الله المحربين .

إننا نخصي ضمن خراف الله إذ نمر واحداً فواحداً تحت
عكاز الرأى . قد تكون أسماؤنا غير معروفة لدى العطاء والعلماء ،

(إش ٤٠ : ٢٦ و ٢٧) . ولا يزال الرب ينطق بكلمات التعزية لكل نفس متممة تجتاز وادي الحزن المظلم .

إن ملايين نجوم السماء تكون قطعاً ضخماً . وراعياها هو الله الذي يقودها في الفضاء ، أو الذي يرقبها كأنها تستريح على المنحدرات السماوية كقطيع من الغنم يستريح على منحدر الجبل في الليل . وهو يعطي لكل منها إسماء . أليس مفروضاً إذاً أنه يعني بكل منا عناية لا تقل عن عنايته بها ؟ ألا يدعو كلّا منا باسمه ؟ ألا يحصينا كما يحصى شعور رؤوسنا ؟ في هذا الصباح بالذات لمسك بعكازه وأحصاك . أنت موضوع عنايته . أيعقل أنه يتركك نهلك أو يعوزك أي شيء من الخير ؟

وبعكاز الراعي يخرجنا أيضاً من ظروف الخطر والنكبات التي نكون قد سقطنا فيها بسبب حماقتنا وخطيتنا . عندما بدأ طرس يفرق أمسكه الخالص ورفعه وساعده لكي يسير على الماء إلى السفينة . لكن هذا مجرد عينة من رعاية الراعي الرقيقة ، لأنه كثيراً ما أحرزته خطايانا ، وليس ذلك فقط بل كثيراً ما طوحت بنا في

ظروف الشقاء والضيق التي تهدد بهلاكنا .

في مثل هذه الأوقات هو لا يغفل خاصته . وبالرغم من أنه يبدو أننا قد خسرنا كل حق في رعايته فإن « الله لنا ملجأ وقوة . عوناً في الضيقات ووجد شديداً » (مز ٤٦ : ١) . هو لا يسمح لنا بأن نخصد ما زرعنا ، ويحوّل عنا كل قصاص أخطائنا وسوء أفعالنا . هو يسعى وراءنا في البرية ، ولا يهدأ حتى يكشف الحفرة التي سقطنا فيها ، ولا يتركها حتى يخرجنا منها ، ويضعنا على منكبيه إن عجزنا عن المسير ، ويعيدنا ، ويفرح لأننا قد أصبحنا آمنين . « هكذا قال السيد الرب هأنذا أسأل عن غنمي وأفتقدتها . كما يفتقد الراعي قطيعه يوم يكون في وسط غنمه المشتتة هكذا أفتقد غنمي وأخلصها من جميع الأماكن التي تشتت إليها في يوم الغيم والضباب » (حز ٣٤ : ١١ و ١٢) . آه ، يا لطول أناة المسيح الذي لا يسمح بأن تبتلعنا الأحزان والقصاصات التي نكون قد استحقيناها ، بل يمد عكازه لينتشلنا من الموت .

وبالعكاز أيضاً بؤدب الراعي خرافه . في بداية الأمر يبدو أن

التأديب يتنافى مع التعزية . فالتأديب عملية غير سارة . وضربة
العكاز ألمية . ومع ذلك فإننا نجد تعزية عندما نذكر أن الله لا
شك يعنى بنا وإلا فلا داعى لكى يصرف الوقت يفكر فى تأديبنا .
من ذا الذى يتعب لكى يأخذ لعجلة المصنع قطعة حجر غشيمة دون
أن يصقلها ؟ . فالحجر المصقول ، والماس المصقول بعناية ودقة ،
والمعدن الذى دخل النار وهُذَّب أسابيع بل شهوراً ، هذه كلها
تصبح لها قيمة عظيمة حينئذ . وأى بستانى ينفق وقتاً ومجهوداً فى
شجرة لا تعطى ثمراً بعد تجارب متكررة ؟ . إن الغصن الذى يحمل
عناقيد عنب كثيرة هو الذى ينال عناية فائقة من الكرام « الذى
يحببه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله . إن كنتم تحتملون التأديب
يعاملكم الله كالبنين » (عب ١٢ : ٦ و ٧) . فاقبل إذاً أيها المؤمن كل
ضربة من عكاز الراعى . وفى كل ضربة تعزّ هذا الفكر : « لا بد أن
راعى يحببى جداً وإلا فلم يكن هنالك مبرر ليعاملنى هكذا » ، وبعد
ذلك حوّل القلب إليه فى رغبة ملحّة بأن تتعلم الدرس الذى يريد
أن يعلمك إياه ، وبأن لا تفقد شيئاً من البركات التى يقصدها لك .

هكذا إننا سائرون ببطء فى الوادى متعلمين دروساً كثيرة

من التعزية التى نخبئها فى قلوبنا . فلنقبل الآلام بالرضا بسبب
البركات الغزيرة التى تحملها . كل جرح فىنا ينتج أولوة ، كما هو
الحال فى محارات اللائى . وهنالك أيضاً حقيقة أخرى هى أن
اختباراتنا تجعلنا رقيقى الإحساس نحو سقطات وأحزان الآخرين ،
وتمكننا من أن نشترك فى تهائل الرسول الذى قال : « مبارك الله
أبوربنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإله كل تعزية ، الذى يعزينا فى
كل ضيقنا حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى كل ضيقة بالتعزية
التي نتعزى نحن بها من الله . لأنه كما تكثر آلام المسيح فىنا كذلك
بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضاً » (٢ كو ١ : ٣ - ٥) .



الوليمة

« ترتب قدامى مائدة تجاه مضايقي » (مز ٢٣ : ٥)

في بداية الأمر قد يبدو أنه من العسير أن نقتبع تسلسل أفكار المرنم إذ يتحول من حظائر الراعى إلى الوليمة . ومع ذلك فإنه مطالب الحياة الروحية تسمو جداً فوق كل التشبيهات الأرضية ، ولهذا فإنها تتطلب استخدام أكثر من تشبيه واحد أو استعارة واحدة ، فالواحد يدعم ما ينقص في الآخر ، وبهذا تكمل الفكرة الحقيقية التي تمثل علاقتنا بالله .

طبيعى أنه مما يعيننا جداً أن يفكر الإنسان في نفسه بحروف ، ويفكر في المسيح كراعى . لسكن لا يمكن أن تكون هنالك شركة بين الحيوانات العجمى وبين حارسها الساهر . إن الولد الصغير - مهما كان صغير السن - الذى يلازم راعى الغنم ، له شركة مع أبيه أقوى من الحيوانات العجمى التي يرهاها .

لهذا فإن المرنم يبدو أن يقول : « أنا أفضل من خراف

الرب ، أنا ضيف الرب » . إن الجلوس مع أى إنسان على مائدته دليل على الألفة الشديدة ، لا سيما في الشرق . ليس ذلك لإشباع الجوع بل لإظهار المحبة الشديدة والولاء والإخلاص . لهذا فإنه مما زاد حزن المرنم أن آكل خبزه هو الذى رفع عليه عقبه (مز ٤١ : ٩) . كذلك لم يكن ممكناً للرب أن يعطى دليلاً على محبته لتابعه الخائن أقوى من أن يغمس لقمة ويعطيها إليه . إذاً فإنه يفدّم أمامنا هنا موضوع للتأملات العميقة إذ نشبه الحياة بالجلوس على مائدة وليمة الله لنأكل كل ما أعدّه لنا .

إننا نجلس على مائدة عناية الله اليومية : إن لأبينا السماوى أسرة كبيرة ، وهو مثقل بالاهتمام بكل المسكونة . كل الأشياء تعتمد على قدرته . لا يطير سرافيم واحد في الهواء دون أن يستمد قوة طاعته من ربه . لا تطير ذرة واحدة في أشعة الشمس مضيفة في النور الجميل دون أن تعتمد على نور وحياة شمس البرّ الذى تغطى الملائكة وجوهها قدامه .

ووسط كل العناصر الطبيعية التي يعنى بها بصفة مستمرة لا شك في أنه يبذل عناية أوفر لسد أعواز أولئك الذين يدعونهُ

حقاً « أبانا » . إننا ضيوفه ، كلا بل أفضل من ذلك ، إننا
أبنائه . كل مخازن الإمدادات الإلهية معدة لسد أعوازنا ، ولا
يمكن أن يسمح بأن يرى أنه يعوزنا أى شيء . قد يسمح بعض
الأحيان بأن يجعلنا ننتظر حتى تدق الساعة . وكما أنه لن يأتى قبل
الأوان بدقيقة واحدة فإنه لن يأتى بعده بدقيقة واحدة . إنه
يسخر أرملة لتعولنا بكوار الدقيق الذى لن ينفذ مهما أخذ منه .
إنه يمطر خبزاً من السماء فيأكل الإنسان طعام الملائكة . إنه
يبارك في الخمس خبزات التى يحملها الولد الصغير في جرابه فتكفى
لإشباع الألوف .

في مساء يوم أحد لم تستطع إحدى المؤمنات أن تحضر
الكنيسة كعادتها وذلك بسبب مرضها . فسالت للراعى عشرة
قروش لتقديمها إلى أرملة فقيرة يعرفها وتعرفها هى أيضاً . فتصادف
أن لقيها تمشى ببطاء في طريقها إلى الكنيسة ، وللحال قدم إليها
العشرة قروش . فأجابته الأرملة في الحال : « لم اكن أظن أن الله
يرسلها إلىَّ بهذه السرعة » . وبعد أن سألتها الراعى علم منها أنها
وضعت آخر ما عندها في صندوق العطاء وصلت إلى الله بإيمان

طالبة منه أن يوفر لها طعامها في الوجبة التالية . لقد كانت هذه
الأرملة في صلة وثيقة دائمة مع الله ، وتعلمت أن خلاصه يصل في
الوقت المعين تماماً ، وعندما تشرق شمس الصباح ، صباح الحاجة
الشديدة ، والساعة التى فيها ينتهى الكبرياء والاعتماد على الذات ،
عندما يكون القلب عامراً بالإيمان والرجاء ، متطلعاً إلى الخلاص
الذى لا يمكن أن يتأخر .

أنا لا أنسى قط قصة رجل متقدم في السن وجد جالساً على
أحد مقاعد كنيسة « يورك » قبيل غلق الكنيسة ليلاً ، وتبين
أنه كان يجلس هناك منتظراً منذ الصباح الباكر . كان قد جاء إلى
المدينة للبحث عن ابنته . وإذا لم يجدها رأى نفسه بدون رفيق
وبدون طعام ، وكان جيبه خاوياً . لم يدر إلى أين يذهب ، فذهب
إلى الكنيسة وانتظر بها طول النهار ، لأنه - على حد تعبيره -
آمن بأن أليق مكان يجد فيه مائدة أبيه هو بيت أبيه . ولست في
حاجة لأبين بأنه قد وجد كل حاجته .

يتوهم بعض أولاد الله أنهم لا يمتازون في شيء عن أهل
العالم . وحسب إيمانهم يكون لهم . إن لم ندرّب الإيمان ونطالب

بإمدادات الله فهل نعجب إن كنا لا نحصل عليها ؟ أما إن كنا
نتمسك بمواعيده التي تلزمه بسد أعواز بنيه ، حتى وإن احتاجت
الأشبال وجاعت ، فإننا نجد بأن الله يقدم إلينا كل ما نحتاجه ،
وأنه لا يسقط حرف واحد من كل مواعيده (مز ٣٤ : ١٠) .
عندما يذكر البعض حالات معينة رأوا فيها أولاد افتقروا جداً فمن
الحكمة توجيه السؤال عما إذا كانت لهم شركة قوية مع الله وإيمان
به ، وعما إذا كانوا قد طالبوه بإتمام مواعيده التي تنطبق على
حالتهم . إن أقل ما يقال هو أنه لا يليق أبداً بأولاد الله أن يقلقوا
من جهة طعامهم اليومى إن كانوا يستخدمون كل الطرق المشروعة
للحصول عليه كباقي البشر . ألا نلمس نعمة التوبيخ فيما قاله الرب
« فإن هذه كلها تطلبها الأمم » ؟ وهل يمكن أن نجد تأكيداً أشد
من كلماته « لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها » .

ماذا تقول إذا دخل ابنك الصغير مكان حفظ الطعام واللحوم
فى البيت قبل ذهابه إلى المدرسة ، وشغل نفسه فى فحص محتوياته
ليتأكد من أن به طعاماً كامياً للوجبة التالية وقت الغداء ؟ ألا
يستحق بذلك سخطك عليه ؟ ألا تقول له : إذهب إلى مدرستك

واتركنى أدبر حاجياتك ؟ ألا توبخه بسبب عدم ثقته فيك ؟ آه ،
ليتنا نتعلم دروساً من أطفالنا ، ونؤمن بأن الحياة إقامة واحدة
طويلة فى أحد منازل بيت أبينا ، وأنه لن يأتى اليوم الذى فيه
تكون المائدة خالية وخاوية ، ولن يأتى اليوم الذى فيه يعوزنا
شئ . قد يسمح لك بأن تجوع لأن هنالك بعض الشياطين التي
لا تخرج إلا بالصلاة والصوم . ولكن ملاك سوف يأتى - إن
عاجلاً أو آجلاً - ويلمسك قائلاً : « قم وكل » ، وعلى رمال
الصحراء تجد وليمة أعدتها أيدي الملائكة ، حتى وإن كانت مجرد
كوز ماء عند رأسك وكعكة رصف (١ مل ١٩ : ٥ و ٦) .

والله أيضاً يرتب مائدة الانتعاش الروحى : هل نسى تلك
الحادثة - التي حدثت فى أحد أيام الأربعين التي كان يظهر فيها
السيد لتلاميذه بعد القيامة - التي وجد فيها التلاميذ وليمة بسطها
سيدهم الحنون على شاطئ البحيرة بعد أن تعبوا ليلة طويلة ولم
يمسكوا فيها سمكاً ؟ فإنهم حالما وطئت أقدامهم الشاطئ رأوا
ناراً ، وفوقها سمك ، وخبزاً . أليس هذا رمزاً لعناية الرب الدائمة
بأولاده ؟ إذ يضيقنا التعب ، ونخور عزائماً بسبب الجهود المضنى

عديم الثمر ، فإننا كثيراً ما نخرج إلى الشاطئ الذي وطنه قداما السيد المبارك . ولن تقترب منه دون أن نجد أنه قد أعد لنا مقدماً كل أعوازنا الروحية وأن «جسده ما كل حق ودمه مشرب حق» . قال الرسول بولس في رسالته لأهل كورنثوس أنه بما أن المسيح فصحناً قد ذبح لأجلنا فيجب أن نفتدى ببني إسرائيل الذين إذ أغلقوا الأبواب ، ومنطقوا ذواتهم ، وانتعلوا أحذيتهم ، ووقفوا حول المائدة ليأكلوا خروف الفصح الذي كان دمه على عتبة الباب في الخارج يشير إلى خلاصهم . «لأن فصحناً أيضاً للمسيح قد ذبح لأجلنا . إذاً لنعيّد» (١كو ٥ : ٧ و ٨) . إن حياة الكنيسة - بين مجيء المسيح الأول ومجيئه الثاني - ترمز إليها ولحمة الفصح في تلك الليلة الخالدة . بفرح في أفواهنا وانتصار في قلوبنا نقف حول مائدة الرب حيث جسده المقدس ودمه الكريم لإنعاش كل النفوس الآمنة ، مرهقين السمع لنسمع أول هتاف ينبيء بأن وقت الخروج والحرية قد جاء . إن المسيحيين اليوم لا يبالون كثيراً بضرورة تناول من مائدة الرب لتغذية حياتهم الروحية . هنالك خدمات كثيرة تؤدي ، وحضور مؤتمرات كثيرة ، وقراءة كتب روحية ، لكن هنالك فقر شديد في

التأمل في شخص الرب يسوع المسيح وفي كلامه وعمله .

ايت كل من يقرأ هذه الكلمات يقف برهة ، ويسأل نفسه عما إذا كان يعرف شيئاً عن حياة التأمل الداخلية التي تزدد نمواً من إيمان الفكر في الرب .

منذ بضعة أيام وجدت توبيخاً لنفسى من عادة القديس « فرنسيس سال » الذي قيل عنه : « كانت النقطة الأولى في قاعدة حياته أن يستيقظ مبكراً ، الأمر الذي حرص عليه بأمانة إلى آخر أيام حياته ، وكثيراً ما كان يوصي غيره به . كان هو أول من يقف على قدميه في قصره ويبدأ صلواته وتأملاته بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة صباحاً ، ولا يقضى في ذلك أقل من ساعة . كان يفعل ذلك ومذكراته في يده ، لكي يتذكر البركات السابقة ، وبهذا كان يزدد غير وحماسة في الصلاة . كذلك كانت لا تمر ساعة في حياته المزدهمة بالمشاغل دون إلتعاش روحه بالاتصال بالله » .

وعلاوة على هذه العادة اليومية كان يخصص أسبوعاً أو اثنين كل سنة لكي يتأمل تأملات أعمق في أسرار الفساد

العظيمة . وهاك ما قاله : « ينبغى على المرء - بالتأمل المستديم فى أسرار التجسد والفداء العظيمة - أن يفهم نفسه أكثر وأكثر فى محبة الله التى هى أعظم بركاته . إننى سأزدد انشغالاً بحب ربى ، بالتأمل فى حياته الإلهية على الأرض ، فى آلامه وفى أمجاده . ليت حياتى « تستقر مع المسيح فى الله » (كو ٣ : ٣) .

ونستطيع أيضاً تطبيق هذه الكلمات على مائدة العشاء الربانى : هذه المائدة قد أعدها الله ، وهى لا تحفظ لنا فقط ذكرى تلك الليلة التى فيها أسلم الرب ، بل هى أيضاً ترفع أفكارنا مثبتة إياها فيه حيث هو جالس الآن . عندما نتناول جسد الرب ودمه يتحقق القلب النقى إنه بالإيمان قد نقبل بركات جزيلة وتعزية ليست بقليلة . لنذكر فى تلك اللحظة الرهيبة - قطرات الدم التى تسببت من جبين المخلص ، والصليب والآلام وموته الحبي ودفنه . وكما نشترك فى آلامه فإننا نشترك أيضاً فى مجد قيامته .

إننا نجد بركة عظيمة عندما نتناول جسد الرب ودمه كل أسبوع ، إن أمكن ، لكي نتعلم بوضوح أن نرفع كل الحياة إلى مستوى مائدة الرب ، فنذكرها كلما جلسنا إلى مائدة الطعام فى كل

وجبة ، ونستخدم كل عناصر الطبيعة كوسائط للشركة المقدسة معه . وكيف نستطيع تقديم الشكر اللائق لله لأنه أعد أمامنا مائدة بهذا المعنى أيضاً .

وهناك تعزية كبرى فى هاتين الكلمتين « ترتب قدامى » إذ يبدو أنهما تشيران إلى عناية الله التى ترتب حاجياتنا من قبل . إنه لا يسمح بأن تذهلنا المفاجآت . لا يسمح لأبناؤه بأن يطلبوا شيئاً لم يرَ هو مقدماً حاجتهم إليه . وكما أنه سبق فأعدّ لنا أعمالاً صالحة لكي نسلك فيها (أف ٢ : ١٠) ، كذلك هو سبق أيضاً فأعد الطعام الذى به يتغذى خدامه . إن كل طريق حياتنا معلم بشواهد أقامها المسيح - الذى سبقنا فى هذا الطريق - ووضع تحتها الغذاء الذى نحتاجه . « لأنك تتقدمه ببركات خير » (مز ٢١ : ٣) . « بسطت المائدة قبل أن يحضر الجائع . لقد تفجرت العين قبل أن تأتى هاجر هى وابنها يكاد يقتلها العطش . وملاك جند الرب لم يحتل فقط مملكة العدو بل أعد أيضاً قبح الأرض . والله يحصن قلاعهم قبل أن يحاصرهم العدو . » ترتب قدامى مائدة » .

ويا لها من عبارة رائعة تلك التي تُتحم بها الآية «تجاه مضايقي» .
 وبقيناً أننا نفهم منها أن كل من حولنا قد يقفون أمامنا لمضايقتنا ،
 يأخذون على عاتقهم أن يقعوا بنا الأذى ، وأن يقطعوا عنا كل
 إمداداتنا ، وأن يهلكونا جوعاً . تطلع إلى هذه الوجوه التي
 تذاصبنا العداء ، تتطلع إلينا بنظرات قاسية تحاول أن تفترسنا ،
 لسنهم لا يستطيعون أن يقطعوا عنا تلك الإمدادات التي تأتيننا
 من فوق ساعة فساعة . لا يستطيعون أن يمنعوا الملائكة الذين
 يبسطون أمامنا مائدة ويكسدون فوقها الطعام ، ثم يصفون أنفسهم
 السكي يكوّنوا دائرة داخلية للدفاع . قد يعصر الأعداء على أسنانهم
 بسبب غيظهم لأن هجومهم قد فشل ، لسن عندما يختار الله أن
 يغذى نفساً فإنها لا بد أن تغذى ولو هجعت عليها قوات الجحيم .
 في صرات كثيرة كان داود يأكل طعامه في هدوء وطمانينة بينما
 كانت جماعة أعدائه المرافقة لشاول تنسلل إلى الأودية بحثاً عن
 السكوف لتجده . وكما كان الحال مع داود لا يزال هذا هو
 اختبار جميع أولاد الله منذ ذلك الحين .

نعم أيها المؤمن ، إن الله يدعوك إلى أن تأكل من الوليمة

«كلوا أيها الأصحاب . إشرَبوا» (نش ٥ : ١) . إن الملك قد
 أدخلك إلى بيت وليمته ، وعلّمه فوقك محبة . سوف تأكل من
 المن الخفي ، ونشرب من الينبوع الذي يتفجر في المدينة المحاصرة
 الذي يمكنها من أن تتحدى أعداءها المحيطين بها . وليس الوقت
 بعيداً حينما نجلس من المسيح في ملكوته . وكما أكل إخوة
 يوسف - الذين أتوا منهكي القوى من سفر بعيد - مع أخيه
 الذي سبق أن أقوه في البئر ، هكذا سوف نجلس نحن أيضاً على
 المائدة المهيأة لعشاء عرس الخروف ، ويتمنطق المسيح ويخرج
 لخدمتنا ، وسوف تمحو ولائم الأبدية الغنية ذكريات أحزان وآلام
 هذه الحياة .



مسحت بالدهن رأسى

(مز ٣٢ : ٥)

هذه الاستعارة مستفادة من عادة الشرق في ولأئمه ، فإن ترحيب صاحب البيت بضيوفه يعبر عنه بالأدهان النفيسة التي يدهنهم بها لدى دخولهم بيته . إن كان الترحيب بهم ضعيفاً - كما حدث إذ دخل المسيح بيت سمعان - أهملت هذه العادة ، ولوحظ الإهمال في الحال ، وربما أُشير إليه كما أشار إليه السيد قائلاً « بزيت لم تدهن رأسى » (لو ٧ : ٤٦) .

إن الحبة والتوقير والترحيب لا يمكن إظهارها بأرق من كثرة ثمن المواد التي يتركب منها الزيت لئيسكب على رأس الضيف العزيز والمر والعود والقرفة تعطر الثياب وتبقى رائحتها أياماً كثيرة ، مذكرة بالساعات الجميلة التي صرفت مع الأحباء . أما الطيب الكثير الثمن الذي سكبته مريم على رأس الرب فقد بقيت رائحته العطرية طوال الساعات المضنية التالية وظلت

تذكروه بمحبة مريم الخالصة .

يبدو أن هذه الأدهان للنفشة للجسم المضنى كانت تُحفظ في وعاء من المرمر ليسهل كسره ، وبهذا تنسكب محتوياته بغزارة . إن الحبة تستخف بكل تضحية . عندما يُمنح الغفران الوفير الذي يبعث الحبة الوفيرة ، ويشعر الخطاة بأنهم قد أصبحوا مقبولين أمام الله ، فإنهم في اللحظة الأولى لا يحسبون تضحية كبرى ، للتعبير عن عواطفهم وفرحهم ، أن يسكبوا محتويات هذه الأواني النفيسة ، ويذرفوا الدموع ، ويطبّعوا القبلات ، ويتصرفوا التصرفات التي تتم عن تفكير رقيق (لو ٧ : ٣٧) .

عندما يقول المرنم أن الله نفسه يدهن رأسه بالدهن ألا يريدنا أن نفهم بأن الحياة ولية نكون نحن فيها ضيوف ، والله هو صاحب البيت ؟ ثم ألا يقصد أيضاً أن يعلمنا بأن الله يرحب بنا في محبة وإخلاص ؟ ليس هو بخيلاً أو مقترأ ، لكنه يسعدنا أن يرانا سعداء ، ويسعدنا أن يسعدنا . هو يفتحنا الكماليات كما يمنحنا الضروريات ، ويبذل الجهد - بثمر غالٍ - لكي يبين لنا أنه يُسر بأن يقبلنا ويرينا نعمة في المحبوب .

هنالك براهين كثيرة عن هذه النعمة الرقيقة التي أنعم بها على البشرية بوجه عام . هنالك أشعة من النور في حياة معظم البشر - في محبة الأصدقاء المخلصين ، أو في توافق المحبين - تتم عن ترحيب الله بنا . إن أغلب البشر إذ يدخلون عتبة الحياة يجدون مثيلاً لهذا الدهن الشرقي ، دهن الترحيب بالضعيف ، الذي يُسكب عليه لدى دخوله غرفة الوليمة . كل شخص ينال الترحيب من غير المنظورين إذ يخطو على عتبة الحياة الروحية .

ولقد رتب الرب المبارك بأن تتوافق طبيعتنا مع العالم الذي نعيش فيه ، حتى إنه يوجد في قلب كل منا سرور عظيم بالحياة وفرح طبيعي وفير جداً ، إلا حيث أفسد الإنسان بخطيته قصد خالقه . « ما أكرم رحمتك يا الله ، فبنو البشر في ظل جناحيك يحتمون . يروون من دسم بيتك . ومن نهر نعمتك تسقيهم » (مز ٣٦ : ٧ و ٨) . « وخر تفرح قلب الإنسان للإماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان » (مز ١٠٤ : ١٥) « ومن السمك بقدر ما شاءوا » .

ومع أن هذا يصدق على البشر بصفة عامة إلا أن هنالك مسحة

خاصة لا يمكن أن يشتركوا فيها . في سفر الخروج (٣٠ : ٢٣ - ٢٥) نرى وصفاً لدهن خاص هو « دهن مقدس للمسحة » كان يستعمل لمسح خيمة الاجتماع والتابوت والأواني المقدسة ، وأيضاً لتكريس هرون وبنيه والكهنة . لكن كان هناك شرطان يجب إتمامهما بصدده . الأول هو أنه يجب عدم تقليده ، والثاني أنه يجب أن لا يُسكب « على جسد إنسان » . وكل من هذين الاحتياطين خليق بتأملنا . فعدم تقليده « لا تصنعوا مثله » يعلمنا أن الدهن الذي يصنعه الله ليس له مثيل في حياة البشر . وعندما نزداد تعمقاً في فحص الكتاب المقدس نجد أن الزيت فيه يرمز إلى الروح القدس . وهنالك فقرات كثيرة في الكتاب المقدس تعطينا كل الحق في تطبيق هذا التفسير على كلمة المزمع التي تهلل بها قائلاً « مسحت بالدهن رأسي » . آه ، ليقنا ندرك دوماً أن مضيفنا العزيز الذي نجلس على مائدته مشغل بصفة مستمرة في مسحنا بزيت الروح القدس .

ولعل ربنا يسوع المسيح قد ردد هذه الكلمات لكن بمعنى أعسق . « وأما عن الابن فيقول أحببت البر وأبغضت الإثم من

أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك»
 (عب ١: ٨ و ٩) . والرسول بطرس أكد - وهو في بيت
 كرنيايوس - أن الآب مسح الابن مسحة كهذه : « يسوع الذي
 من الناصرة مسح الله بالروح القدس والقوة » (أع ١٠: ٣٨) .
 وهذا يتفق مع صوت الكنيسة المضطهدة الظافرة عندما تقف حول
 « فتاك القدوس يسوع الذي مسحته » (أع ٤: ٢٧) . نعم ،
 والآب لم يعط الروح بكميل بل بغزارة غير محدودة ، والسموات
 انفتحت - كما تسربت الأواني المرمية فيما بعد - وتزل الروح
 القدس (لو ٣: ٢٢) .

لم يكن هنالك وقت لم يكن الرب يسوع المسيح فيه ممثلًا
 بالروح القدس . « روح الرب عليّ لأنه مسحني » (لو ٤: ١٨ ،
 إش ٦١: ١) . « أنا روح الله أخرج شياطين » (مت ١٣: ٢٨) .

لقد مسح الرب كاهن . كان كل كاهن يُمسح بالمسحة المقدسة
 (خر ٢٩: ٢١) . ومع أن كاهننا الأعظم لم يكن على طقس
 هرون فقد مسح أيضًا ، وهكذا استقر عليه الروح القدس « مثل
 الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية لحية هرون ، النازل إلى

طرف ثيابه » (مز ١٣٣: ٢) . إننا لسنا إلا مثل طرف ثيابه
 قرب قدميه حيث تلمع الرمانات وسط الجلالجل الذهبية (خر
 ٢٨: ٣٣) . ومع ذلك ألا يليق بأن نتوقع بأن نقبل هذه المسحة
 المقدسة كطرف ثيابه .

« مسح الرب كللك » . إن كلمة « مسيا » معناها مسح .
 « وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح » (يو ١: ٤١) . وفي المزمور
 الخالد ، مزمور المسيا ، الذي فيه يعلن القدير - وسط ثورة أعدائه -
 أنه قد أقام ابنه ليكون ملك البشر الحقيقي ، قيل بصراحة ووضوح
 « أما أنا فقد مسحت ملسي على صهيون جبل قدسي » (مز ٢: ٦) .
 ألا تذكرنا هذه الكلمات الرائعة بمنظر جليل عندما كان أدونيا
 وشركاؤه في المؤامرة يفرحون ويغتبطون عند حجر الزاحفة الذي
 بجانب عين روجل وإذا برسول بلهث ويفاجئهم بهذه الأنباء :
 « سيدنا الملك داود قد مأك سليمان ، ومسحه صادوق السكاهن
 وناثان النبي ملسكاً في جيحون وصعدوا من هناك فرحين حتى
 اضطربت القرية » (١ مل ١: ٤٣ - ٤٥) . « هللوا فإنه قد
 ملك الرب الإله القادر على كل شيء » (رؤ ١٩: ٦) . إن إله

الحبة هو الذي مسح ملسكاً . ومع أننا لا نرى كل شيء قد أخضع له إلا أنها سوف تخضع له ، وسوف يعلن العالم ولائه التام له .

ونحن أيضاً قد مسحنا كملوك وكهنة . سبق أن رأينا بأن الدم والدهن كانا يستعملان للتكريس . ولهذا فإذا اشترانا وغسلنا بدمه فقد مسحنا لنكون ملوكاً وكهنة لله أبية (رؤ ١ : ٦) بتجديد الروح القدس « الذي سكبهُ بغنى علينا » (تي ٣ : ٦) .

أيها القارئ العزيز ، هل اختبرت هذا أم إنك تشكو بمرارة لأنه يعوزك هذا الاختبار ؟ آه ، إن إلهنا لا يعرف التمييز أو الحباية . هذه المسحة هي لك في فكر الله وقصده . وعليك أن تطلبها وتجعلها حقيقية في حياتك ، لكي تختبر كلمات الرسول : « ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا » (٢ كو ١ : ٢١ و ٢٢) .

فعلينا أن لا نحاول قط إتمام الخدمة - ككهنة - بتقديم ذبيحة التسبيح أو الصلاة دون أن نطلب وننال مسحة جديدة . ولنتق بأننا من المستحيل أن نتمم أية خدمة - كملوك - بالتملك على

طبيعتنا الداخلية أو الجلوس ، في عظمة ملسكية ، مع المسيح على عرشه ، إلا إن كنا شاعرين دواماً بمسحة الروح القدس .

وإنه لامتياز لنا أن نُمسح بزيت طرى (مز ٩٢ : ١٠) .

كان هذا هو ما تأكد منه ذلك لرجل الذي شهد له الله بأنه وجده حسب قلبه . ليس هنالك شيء تافه أو مبتذل في مخازن الله أيس مطلوباً منا أن نعيش على فاكهة مجففة لأن الشتاء جرد الأشجار من فاكهتها ومن أوراقها . والقوة والأفراح التي تمتعنا بها في أيام غابرة لا تصبح موضوعاً للندم والتأسف الآن بسبب ضياعها ، لأن مضيفنا الكريم قادر ويريد أن يعطينا كل يوم من أيام حياتنا للمتابعة بقدر ما أعطى في الأيام الماضية وأكثر . لا تتحسر على النعمة التي أفلتت كأنها لن تعود . هنالك مخازن لا تنضب من الدهن الذهبي في زيتونة الله تغذي أنابيب الإيمان الذهبية ، وهذه تغذي سُرُج الحياة المقدسة ، وبهذا لن تنطفئ في الليل الطويل ، بل تزداد ضياء (زك ٤ : ١٢) . طالب كل صباح بأن تُمسح من جديد ، بدهن جديد .

هذه المسحة تبهج قلوبنا . فالدهن هو « دهن الابتهاج »

(مز ٤٥ : ٧) . « ما أجوده وما أجله . الحنطة تنمى الفتيان
والمسطار العذارى » (زك ٩ : ١٧) . « وخر تفرح قلب
الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت » (مز ١٠٤ : ١٥) .
« ليكن (أشير) مقبولا من إخوته ، ويغمس في الزيت رجله »
(تث ٣٣ . ٢٤) . إن حاجة العالم هي الوجوه اللامعة ، الالبسة
المبهجة ، كلمات الرجاء التي تبهج الفعلة طول الليل ، الأقدام التي
تقفز فرحاً . إذا كان المرء يفقد هذه فإنه يفقد ختم البنوية الذي
ثبت صحتها أمام كل الناس . أما إذا حصلنا عليها - وهذا أمر
أكيد عندما نُمسح كل يوم بالروح القدس - رأى أحبائنا في
تصرفاتنا وفي منظرنا ما يلفت أنظارهم دون أن يستطيعوا تقليده
أو فهمه ، وسألونا أن نفسر لهم سر الفرح الذي لا يقدر العالم أن
يسسه ، لأن يناييعه غبطة في أرض لا تعرف صقيع الشتاء .

وهذه المسحة تعاننا ما يعجز عنه أى معلم بشرى . كتب
الرسول يوحنا إلى أبنائه الأحداث يقول : « لا حاجة بكم إلى أن
يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء »
(١ يو ٢ : ٢٧) . إن التبرم واللئيم والجزع كثيراً ما رافقت

تحصيل العلم الأرضى على أيدي المعلمين البشريين ، وكثيراً ما
ينقصنا أحب الأشياء التي نريد أن نتعلمها . لكن لا يوجد شيء
مثل هذا مع إلهنا . فكل أولاده يدركون أنه عندما يعلمهم يعظم
سلامهم . لا يستطيع أحد أن يعلم مثله . وعندما يتعهد بتعليم
النفوس فإنه لا يمكن أن يحدف فقرة واحدة من كل العلوم
السمائية اللازمة .

أما تأثير هذه المسحة فهو ثابت . « المسحة التي أخذتموها
منه ثابتة فيكم » (١ يو ٢ : ٢٧) . الطعام الذي أكلناه يثبت
فينا ، وعندما لا نحس بوجوده فإنه يكون قائماً بعمله على أكمل
وجه لبناء مادة كياننا . عندما نفال بركة روحية عظيمة فإنها لا
تزول ، بل تثبت . في وسط ضغط الظروف اليومية والعمل
والمشاغل الكثيرة ، عندما يبدو أن العقل منشغل جداً بالعمل
الضروري بحيث لا يكون لديه وقت فراغ لزيادة التسامى ،
يكون الروح القدس متابعاً عمله المبارك لإنماء النعمة والقوة في
الداخل . وبتعبير آخر ، إننا ننال بركات مسحة الروح القدس
بعد وقت قبولها بوقت طويل ، فالراحة العطرية تستمر لاصقة

بملايسنا، والبشاشة تستمر على وجوهنا .

فعلينا أن لا نرتضى بأقل من النعمة المباركة التي لا يعبر عنها
التي تدعى «مسحة» . نحن لا نستطيع أن نخللها أو نفهم لماذا تنتج
هذا التأثير الذي يعجز عن إتمامه العلم أو الفصاحة . لسكننا نتبينها
عندما تكون موجودة ، ونفتقدها عندما تزول . عندما تكون
موجودة فإن القلب يتقبل أقل كلمة كرسالة من الله . وبدونها
تصبح أفصح وأبلغ العظات بلا جدوى .

يا رب إفعل ما شئت ، لكن فقط امنحنا هذه المسحة ، مسحة
الروح القدس . «مسحت بالدهن رأسي» . «ياسيد ، ليس
رجلي فقط بل أيضاً يدي ورأسي» (يو ١٣ : ٩) .



الفصل العاشر

الكأس الفائضة

«كأسى ربا» (مز ٢٣ : ٥)

قد تأتي لحظات مبهجة مفرحة لأشد القلوب حزناً وكآبة .
في نهاية مجهود طويل مضمّن ، عندما يكون المرء مرتباً على رمال
الصحراء كإيليا ، يطرح النوم تعويذته على الجسم المنهك القوى ،
وتبسط الملائكة ولحمة منعشة ، وتستيقظ النفس باللمسة السماوية ،
بقوى جديدة للقيام بمهام جديدة .

لا نستطيع دواماً أن نحدد الوقت الذي فيه تأتي مثل هذه
الاختبارات . لكن هذا هو كل ما نعرفه : إن نشاط الحركة
يزداد ، والرجاء في القلب يزداد ، والشفاه تترنم ، وكل الكيان
يبتهج ، كما تفعل الطبيعة في بعض أيام الربيع الجميلة . «عندما رد
الرب سبينا امتلأت أفواهنا ضحكاً» وألسنتنا ترنماً . حينئذ نقول
بين الأمم أن الرب قد عظمّ العمل معنا وصرنا فرحين «
(مز ١٢٦ : ١ - ٣) .

في ساعات كهذه تبدو الحياة أمامنا كأنها كأس مزجتها يد

يد الرب المُجِيبَة ، تفيض منها رحمته وإحسانه . وبدموع تجاهد مع الابتسامة محاولة التغلب عليها ، كما يجاهد المطر مع أشعة الشمس ، نرفع الكأس الممتلئة إلى شفاهنا ونصرخ قائلين « كَأْسِي رِيَا » .

إننا لنجد اختباراً مماثلاً في مزمو ر آخر يمس أعماق الينايع كما يمس أسمى الاختبارات البشرية . إنه يبدأ بمحدث أسيف عن التعب ، عن « حبال الموت وشدائد الهاوية » (مز ١١٦) ، وبتهم طائشة عن حقيقة كل البشر . ويخبرنا كيف أن المرئم في شدته دعا باسم الرب . وكيف صنع له الرب خلاصاً عجيبياً . وبعد أن يتأمل في نصيبه ، يبدو له كأنه كأس ممتلئة خلاصاً ، وممتلئة إنقاذاً كافياً سريعاً رقيقاً صنعه له القدير (ع ١٢ ، ١٣) .

ليس لنا الآن أن نقول شيئاً عن المادة التي مُصنعت منها كؤوس الحياة . قد تكون من ذهب ، أو فضة ، أو صفيح ، أو مرمر ، أو زجاج . هنالك تنوع غير محدود في المواد التي مُصنعت منها حياتنا . ولنتأمل فقط في محتوياتها التي لا يختلف طعمها سواء أ كانت في أوان فخارية أو أوان ذهبية . إن الاختلافات الكبيرة في حياة البشر تقوم في محتوياتها لا في مظاهرها الخارجية . فلا

تنظر إذاً بتبرم إلى خارج كأسك وصفتك ، بل انظر بشكر إلى محتوياتها التي قد تكون أكثر حلاوة لمذاقك . ولو كانت في كأس عادية . من محتويات حياة الآخرين الذين تحسدهم وأنت لا تدري كيف أن محتوياتها مرة المذاق .

خليق بنا أن نذكر بأن كأس البركة التي نشرب منها كانت سابقاً ممتلئة لعنة مرة . نقرأ في الكتاب المقدس عن « كأس الترنح » أو كأس الارتعاش (إش ٥١ : ٢٢) ، وكأس غضب الله . وإذا نقرأ الكلمات ندرك أن حياتنا كان ممكناً أن تمتلئ بالارتعاش والارتعاب وتمتلئ بالغضب ، كأجر لأفعالنا . وليس معنى هذا أن الله محب للانتقام ، أو أنه يُسرّ بموت الخطيئة ، بل إن طبيعته المقدسة لا يمكن إلا أن تشتعل غضباً كلما رأى الشر والنجاسة . لو تركنا للنشرب نتائج خطيئتنا المرة لكان ذلك كما فعل موسى إذ سحق العجل الذهبي وذرى الرماد على الماء وأعطى الشعب ليشربوا . وإذا ما وُحِّه السؤال كيف إننا أعطينا من اختبار مُرّ كهذا ، تلقينا الإجابة في كلمات ذلك الذي يدافع عن قضية شعبه : « هأنذا قد أخذت من يدك كأس الترنح ثقل كأس

غضبي . لا تعودين تشرينها في ما بعد » (إش ٥١ : ٢٢) .
وعندما أخذها من أيدينا سكب محتوياتها في الكأس المزوجة
له ، وأعادها إلينا فارغة حتى من الثمالة ، بل ممتلئة من خمر محبته ،
بينما شرب هو نصيبنا من الغضب والويل .

أذكر كلماته في جثسياني حينما أنهى جهاده في الصلاة ، وكان
الجنود على وشك أن يقيدوه ، واستل بطرس سيفه بهور « فقال
يسوع لبطرس إجعل سيفك في الغمد . الكأس التي أعطاني
الآب ألا أشربها ؟ ! » (يو ١٨ : ١١) .

تأمل في محتويات كأس المسيح : العار والبصق ، الآلام
والشدائد ، التعذيب الجسدي ، وفوق الكل مראה خطايانا التي
التي تحملها ، إثم لعنتنا التي قبلها طوعاً ، قصاص خطيتنا التي
حسبت عليه . وبتعبير آخر يمكننا القول : أن كل البشرية وقفت
في صف طويل ، وفي يد كل واحد كأس مرة ، وإذا مرّ المسيح
عليهم أخذ من يد كل واحد كأسه وسكب محتوياتها في الكأس
الكبيرة التي كان يحملها ، وهكذا نراه على الصليب قد « ذاق
الموت لأجل كل واحد » (عب ٢ : ٩) . وهكذا تفعم حياتنا

بالخلاص لأن حياته أفعمت بالآلام ، وأصبحت كأسنا كأس
الفرح لأن كأسه كانت كأس الحزن ، وكأسنا كأس البركة لأن
كأسه امتزجت باللعنة التي تحملها نيابة عنا .

آه ، ليتنا في لحظات مسراتنا نقمدى بالقديسين في السماء الذين
في وسط أبهج مسراتهم يقرون دوماً سعادتهم بموت المسيح .
لا تنس قط الثمن الذي أشرتيت به أبهج لحظات حياتك .
ولنعدد بعض محتويات كأس حياتنا :

(١) الصحة الجيدة هي من أهمها . قد يكون المرء حاصلاً على
كل ما يؤدي إلى السعادة البشرية ، ولكن إن كانت هذه مقترنة
بآلام المرض المستديم فأية سعادة له ؟ إن أيا من الحزينة تعزى في
كثير من الحالات إلى اعتلال الصحة ، وأيا من البهجة تكون بصفة
عامة مقترنة بالصحة القوية . إذاً فإن بدت كأسك حلوة للمذاق
كانت الصحة السليمة عنصراً أساسياً في محتوياتها ، ولو أننا لا
نقدّر قيمة الصحة إلا وقت اعتلالها . ولقد صدق من قال « الصحة
تاج على رؤوس الأنحاء لا يراه إلا المرضى » .

(٢) الصدقات البشرية والمحبة البشرية . إذا انعدمت صارت

أسعد سعادة برية فاحلة ، وأصبحت حتى الشوارع الذهبية كالشوك تُدعى الأقدام . أما إذا توفرت أسعدت أفقر فقير ، وصارت حتى الأرض المثلثة أعشاباً جنة في السماء .

(٣) وسائل الراحة في الحياة العائلية . ولا داعي للتحدث عن الضروريات . إن الكثيرين منا يتمنعون بالكاليات : الوسائد الناعمة ، الأبسطة الفاخرة ، الأثاثات النفيسة والكثيرة ، والطعام الفاخر ، والملابس الغالية ، والخدم الذين يوفرون علينا الكثير من تعب الأعمال اليدوية . يدرّب الرواق نفسه للاستغناء عن الكثير من هذه ، وقد يحاول اقناعنا بأن الحياة بدونها أسهل مما هي مع توفرها . ومع ذلك فما لا شك فيه أن الكثير من رفاهيتنا يتوقف على توفر هذه الملذات التي أصبحت مألوفاً لنا بطول الاستعمال .

(٤) الثقافة العقلية . كل منا يستطيع أن يسحب من بئر الماضي كنوزاً من علوم العالم الماضي والعالم الحاضر . وكل منا يستطيع أن يستمتع بأفكار الشعراء والفلاسفة الذين أغنوا المسكونة بعلومهم . وكل منا يستطيع أن يفحص الطبيعة ليفترف الكثير من عجائبها وجمالها .

(٥) ومن وقت لآخر تُسكب في كأس الحياة حلاوة ممتازة :

إنقاذ خاص ، تدخل العناية الإلهية بكيفية لم تكن متوقعة ، بركة غير عادية لا نستحقها . ويكون الأمر واضحاً بأن هذه لم تُرسل لغاية أخرى سوى إشباع رغبة الله في العطاء . إن كل قلم بشرى ليعجز عن وصف كل ما يسكبه الله في كأس حياتنا ، فالكثير من محتوياتها لا يمكن تعليله ، والكثير لا يمكن إدراكه ، والكثير لا يمكن إحصاؤه . وفضلاً عن هذا فإن كؤوس الحياة لا يمكن أن تُمتلأ بنسبة واحدة . فإن أبانا يفحص ماله تكويننا ويجعل استعداداته في العطاء مطابقاً لاحتياجنا . وطالما كان هنالك تنوع لانهائي في مادة تكويننا فإن هنالك تنوعاً لانهائياً في الجرعات التي يضعها أماننا على المائدة التي يبسطها لنا . على أنه مهما كانت البركات التي في كأسنا فمن المؤكد أنها تفيض .

إن العجل الذي يقدمه عجل مسمن دائماً ، والثوب الذي يقدمه أفخر ثوب . والفرح لا يُنطق به . والسلام يفوق كل عقل . والنعمة فائضة وغنية حتى إن من يقبلها يشعر بأن له كل اكتفاء في كل شيء . ويزداد في كل عمل صالح . وعطايا الله لا تعرف الشح أو التقدير أو البخل . وهو لا يزن هبانه كما يزن الصيدلي عقاقيره بالدرهم والجرام ، ويسكبها نقطة نقطة . إن طرق الله تتميز دواماً

بالوفرة والسخاء ، كالطبيعة الغنية بجمالها وحياتها ، حتى أن كل نقطة في المحيط ، وكل سنتيمتر مربع في الغابة ، وكل ذرة في المادة تحمل العجائب وتحدى علوم العلماء . فخلق بكل منا أن يصرخ مع الرسول : « استوفيت كل شيء واستفضلت » (في ١٨ : ٤) . على شاطئ إحدى البحيرات العذبة في أمريكا تقطن أسرة متواضعة في كوخ متواضع . وعندما يقضى الولد الصغير كل الصباح في اللعب يدخل الكوخ متعباً وعطشاً ويسأل أمه أن تسقيه . فتأخذ الأم كأساً وتنزل إلى البحيرة وتملأها إلى حافتها وتسقى ابنها حتى يرتوى . هذه هي الطريقة التي يعاملنا بها الله . إنه يعطي الجميع بسخاء ولا يعير . فيه كل كفايتنا وأزيد من الكفاية . هو يعطينا أكثر مما نحتاجه لأنفسنا . فلنحرص على أن نمسك بكوؤوسنا بحكمة بحيث لا يضيع ما يفيض منها بل يُسكب في كوؤوس الآخرين الذين لا يمتلكون بقدر ما نمتلك نحن . آه ، ليت طرقنا تكون مثل طرق الله التي عندما تقطر دماً فإنها تقطر على المراعى الناشفة في البرية حتى تتمنطق الآكام بالبهجة ، وأخيراً تكتظ بالغنم ، وتهتف بالفرح وتغني « آثارك تقطر دماً . تقطر مراعى البرية وتمنطق الآكام بالبهجة . اكتشت المروج

غنماً . والأودية تعطف بُراً . تهتف أيضاً وتغني » (مز ٦٥ : ١١ ، ١٢) . لكن الكأس يشير بصفة خاصة إلى البركات الروحية . كان هذا هو اختبار الكثيرين من أبرز القديسين . قال أحدهم « رد يدك يارب . كفى . إن عبدك آنية خزفية لا تستطيع أن تسع أكثر من هذا » . وقال آخر إنه إذ كان وحيداً في إحدى رحلاته بدأت أفكاره تسمو أكثر وأكثر حتى صارت فيضانياً مكتسحاً . هكذا كانت وجهة نظره في تفكيره ، وهكذا كان تذوقه لأفراح السماء ، وهكذا كان تأكده من تلذذه بها ، حتى إنه أصبح لا يبالي بالنظر إلى هذا العالم ولا يهتم به . وبعد عدة سنوات دعا ذلك اليوم أحد أيام السماء ، وأعترف بأنه بذلك ازداد فهماً لحياة السماء أكثر مما فهمه بالكتب التي قرأها أو العظات التي سمعها .
يقيناً أن الرب يسوع المسيح قصد لنا أن يكون اختبارنا لمثل هذه الأفراح أكثر استدامة . إنه لم يأت لكي يمنحنا حياة فقط بل لكي تكون لنا الحياة الأفضل . لقد كلمنا بكلامه الخالد لكي يكمل فرحنا . هو يريد أن تتلذذ بالدمس أنفسنا وأن نشبع رضى ونمتلئ بركة من الرب (تث ٣٣ : ٢٣) .
إن مثله الأعلى لنا يمكن تشبيهه بأحواض صخرية حفرها

سقوط المياه المتوالى ، تحف بها أرض خضراء فى غاية الروعة
والجمال والخصب ، يصب فيها النهر مياهه الغزيرة التى يستقيها من
ينابيع مستديمة ، وإذ تفيض منها المياه بصفة دائمة فإنها تجري فى
مجرى مستديم يملأ بدوره بركة صغيرة أو يزيد خصوبة الأرض
الحيطه به . فملينا أن نحتزن ما حصلنا عليه . بل لنسمح بسرور
لسكأسنا بأن يفيض . لنتجنب مجل البخيل الذى لا يريد أن
يعطى لأنه يخشى أن لا يأخذ . لنعط بروح السكرم والسخاء من
ثروتنا ، لأننا نعلم أنها لا تفقد إذ أنها آتية من يد أيلنا . إن أحد
قوانين ملكوته هو إننا نأخذ منه بنسبة ما نعطى .

كلمة أخيرة : إحرص على أن تأخذ كأس الخلاص . ليس
هنالك احتقار للمعطى أشد من تجاهل عطايه . ومع ذلك فما أ كثر
الكؤوس التى يضعها أمامنا الله لسكنا نرفض أن نذوقها . يبدو
أن البعض يظنون بأن الله لا يريد لهم السعادة الكاملة ، وأنهم
إن شربوا كأس الفرح فإنما ذلك خلصة أو مع كلمة اعتذار .
والبعض يشربون نصفها ، أن إن شربوها كلها وضعوا فيها بعض
المرارة من صنع أيديهم لئلا تكون الجرعة حلوة المذاق أكثر من
اللازم . إننا كثيراً ما ننسى بأن الله أعطانا كل شىء بغنى للتمتع

وعندما نكون واثقين من أنه قد أعطانا أى شىء فيجب أن لا
نحجم عن أخذ السكأس من يده . فى بعض الأحيان لا نملك
شيثاً لأننا لا نستطيع أن نبصر أو لأننا نتباطأ فى أخذ السكؤوس
التي يعدها لنا الله .

وعندما نشرب لنحرص بأن ندعو باسم الرب . كأس
الخلاص أتناول وباسم الرب أدعو » (مز ١١٦ : ١٣) . عندما
نفعل هذا نجد أن الدواء المر الذى يخيفنا قد تحول فجأة إلى أ كسير
الحياة . هنالك رواية قديمة عن كأس قديمة ممتلئة سماً وضعت
بجيب فى يد الملك . وإذ رشم عليها علامة الصليب ودعا باسم الرب
تحطمت عند قدميه . إذاً فادع باسم الرب فى كل ظرف . إدعه
فوق السكؤوس التى تغريك قبل أن ترفها إلى شفقتك ، سواء
كانت هذه السكؤوس هى صداقات ، أو خططاً ، أو أى نوع من
أنواع الأعمال العالمية . هذا الاسم إما أن يكشف الأفعى السكامة
فى قلب السكأس ، أو يحول الأشياء العادية إلى أشياء مقدسة ،
ويجعل السكأس العادية كأساً مقدسة كالتى نستخدمها عندما نشرب
دم الرب .

الحرس السماوى

« إنما خير ورحة يتبعانى كل أيام حياتى » (مز ٢٣ : ٦)

« كل أيام حياتى » . هذه تشمل كل الأيام . أيام الربيع :

عندما يكون كل العالم مليئاً بالحياة الجديدة البهيجة . بهجة فى الحقل ، أغنيات فى الجو ، تفتح الزهور فى البستان . أيام الصيف : عندما تكون السنة قد وصلت إلى قمتها المجيدة ، ونورها الذهبى ، ولياليها المنعشة . أيام الخريف : عندما تمتلئ الحقول بحزم القمح ، وينشغل العمال فى جمع السكروم والفواكه المتنوعة . أيام الشتاء : عندما تنساقط أوراق الشجر ، ويكفر الجو ، وتنساقط الأمطار ، ويتكاثف الظلام ، وتصبح الأرض الزراعية كأنها برية قاحلة .

فى بعض الأحيان نقف على حافة جبل تطل على هاوية عميقة يكتنفها ضباب كثيف فنبدأ بأن نتساءل عما تكنه هذه الهوة ، ويقودنا هذا إلى التساؤل عما تكنه لنا الأيام . هل ستكون الأيام ذهبية تشرق عليها أشعة شمس السماء بلونها الذهبى ؟ هل سيكون

لونها أحمر لأنها سوف تلتطخ بدم الآلام والتضحيات ؟ أم سيكون لونها قاتمًا بسبب ما يكتنفها من ظلمة الأحزان ؟ هل ستكون أيام ولادات ، أم أيام وفيات ، أم أيام زيجات ، أم ذكريات أحباء أعزاء انتقلوا ؟ هل ستكون أيام أصوام ، أم أيام ولائم ، أم أيام ذكريات قديسين ؟ هى ساعات قصيرة معدودة - ساعات اليوم الواحد - كوميض نور الفئار الذى يُرى فى البحر . ومع ذلك كم من السراء والضراء يحمل .

على أنه لن ينجى يوم واحد فى كل مستقبل حياتنا دون أن يرافقنا الملاكان الحارسان ، الحرس السماوى ، المرسلان من الله ، وهما الخير والرحمة ، اللذان أمرهما الله بمرافقة المؤمنين كل أيام غربته على الأرض .

عندما يتملك الخور على المسافر بسبب البرد ، أو يبعثه ظلام الضباب السكثيف فيعجز عن رؤية الطريق ، ومن ثم ينطرح على العشب يكاد يقتله التعب واليأس ، فأية تعزية لانهائية تملأ قلبه إذ يرى راعيماً بجواره ، أو يتبين اثنين من الخدم جاءا من بيته البعيد مرسلين للبحث عن ذلك الضال وإعادته إلى بيته الدافئ

الأمين . بهذه الكيفية يرى المؤمن — في ساعات التعب والوحشة — ملاكى الله هذين : الخير والرحمة .

لم نر قط ملاكين كاللذين جاءا إلى سدوم ، ولا حتى تمثالى ملاكين كاللذين كانا يظلمان تابوت العهد في خيمة الاجتماع . لكننا نستطيع أن نتخيل وجهيهما الطاهرين ، وهيتيهما الأنثوية ، وطرقهما الرقيقة . على أننا نرى هنا ما هو أفضل من معونة الملائكة ، إننا نرى صفتين من صفات الله : خيره ورحمته ، أى شخصه فى أرق كل اعلاناته عن محبته وشفقته نحو البشر .

خير ورحمة ليس خيراً فقط ، فإننا خطاة ونحتاج إلى الغفران . وليس رحمة فقط ، فإننا نحتاج إلى أشياء كثيرة غير الغفران . لكن الإثنين مرتبطين معاً . خير لسد كل حاجة ، ورحمة للغفران كل خطية . خير للامداد ، رحمة للغفران . وطالما ربط داود الإثنين معاً ، فنراه مثلاً يقول « الرب صالح (خير) . إلى الأبد رحمته » (مز ١٠٠ : ٥) .

وماذا نقول عن هاتين الصفتين المباركتين ؟

« خير » مكتنز فى مخازن فسيحة جداً فى طبيعة الله ، معد

للفقير . هو طعام للجائع ، مسكن للبار ، إكليل السنة ، شمس الحياة « ذوقوا وانظروا ما أطيب (ما أكثر خير) الرب » (مز ٣٤ : ٨) . « ما أجوده (أخيره) وما أجمله » (زك ٩ : ١٧) .

« رحمة » : هى إبنة الله ، هى مسرته « فإنه يسر بالرفقة (بالرحمة) » (مى ١٨ : ٧) . وهى ثروته ، فإنه « غنى فى الرحمة » (أف ٢ : ٤) . وهى عرشه « وأنا أتكلم معك من على الغطاء (كرسى الرحمة) » (خر ٢٥ : ٢٢) . من ذا الذى يستطيع إحصاء الأشعة المنبعثة من هذه اللؤلؤة . إنها رقيقة ، أكيدة ، أبدية . يقيناً أنه يليق بالرب أن يقول « أن أباكم رحيم » (لو ٦ : ٣٦) .

وهذان « يتبعاننا » . فى الشرق يسير الراعى دوماً فى المقدمة . وراعينا الصالح لن يخرجنا إلى أى عمل أو إلى أية موقعة حربية دون أن يتقدم أمامنا . لكن ملائكته التى تحرس قطيعه تكون فى المؤخرة . إن لنا حراس مؤخرة للدفاع عن كل هجوم يشنه علينا عدونا الخائن . إن لنا معينين يرفعاننا من حجر إلى حجر فى أهرام الحياة ، يحفظاننا من السقوط ، يهتمان فى آذاننا بكلمات

التعزية ، ويضمان أذرعتهما القوية تحت أذرعتنا في ظروف الشدة وعند التعثر .

هل تحمل هذه الكلمة « يقبعان » هذا المعنى أننا عندما نبتعد عن الله فإنه يرسل خيريه ورحمته، وراءنا ليدعوا أنفسنا للرجوع إليه ؟ لعلها تحملها . إن ترك ابن عاق أمه الأرملة ليسافر بجرأاً فإنها لن تنساه ، بل إن صلواتها ودموعها وتفكير محبتها تتبعه . ولكي تعيده إليها وإلى الله فإنها ترسل إليه أرق حنين قلبها الحطيم . وهذا ما يفعله الله مع خاصته . قد يبتعدون عنه ، أما هو فيتابعهم . يجعل الخير والرحمة يتبعانهم . قد يبدو في بعض الأحيان أن ضيقاً يتبعهم فوق ضيق ، وضربة فوق ضربة . لكن هذا ليس حقاً . إن حقيقة الأمور ليست دواماً كظواهرها . فهذه الضيقات والضربات ليست إلا المظاهر التي يختفي وراءها الخير والرحمة ، هي ثوبها الخارجي الذي يحمي الثياب الصوفية الرقيقة المعدة للابن الضال المهمل الثياب ، الذي يكاد يموت جوعاً ، لتدفئة رأسه المتعب وجسمه المنهك القوى . إن الله لن يقسى قلبه ، ولن يتخلى عن أمانته ، ولن يترك خلقه يديه « لأن إلى الأبد رحمته » (مز ١٠٦: ١) .

إن ذهبت هنا أو هناك وجدت نفسك في أذرع خير الله ورحمته اللذين يتبعانك بصفة مستمرة . قد لا تدرك بأنهما قريبان منك ، قد تشعر بأنك وحيد حزين ، كئيب . فد يكون اليوم أسوأ أيام حياتك ، فالجو مكهر ، مقبض للنفس ، لا شعاعة فيه للأمل والرجاء والعزاء ، تحيط بك عوامل الخوف والفرع . لكن ملائكة الله يرون أنه بالقرب منك - ولو كان محتجباً عن عينيك بسبب ضعف إيمانك - يقف خير الله غير المحدود المشبع بالحب ، ورحمته الرقيقة التي لا تسقط أبداً . إنهما سوف يبسطان أمامك في البرية مائدة كما فعلا لإيليا ، أو يضئان لك في العاصفة ، ويقفان بجوارك ، ويأسرانك قائلين « لا تخف » كما فعلا مع بولس .

إذا طام الموج الرفيع	وهاجت المياه
نعلم أنك السميع	وصاحب النجاة
تهداً بأمرك الرياح	طوعاً لما تريد
فننظر البحر استراح	من كده الشديد
ما دمت تحفظ الحياة	لا نهرب الهلاك
في الضيق أو حين النجاة	نكون في حماك

وطالما كان هنالك رجاء كهذا فلا يوجد أقل مبرر للشك .
يقول المرنم « إنما خير ورحمة يتبعانني » . ولماذا هذا اليقين ؟ لأن
الله هو الله ، لا يتغير ، أزلي أبدي ، لا يمكن أن يسحب ما أعطاه
مرة . « إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً ، لن يقدر أن ينكر نفسه »
(٢ تي ١٣ : ٢) . « لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة »
(رو ١١ : ٢٩) . ومانح كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هو
أيضاً أبو الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران (يع ١ : ١٧) .
وإذا ما ابتدأ بأن يتبعنا بالخير والرحمة ، فإننا قد نبتعد عن طريقه ،
ونتغافل محبته ، ونقاوم روحه القدوس ، ونتجاهل وجود رسوله
(الخير والرحمة) ، ونأمرها بالابتعاد عنا . ومع ذلك فإنهما لا
يتزحزان . قد يتبعاننا عن بُعد لكنهما سوف يستمران في
الاتباع ، ولا يهدأ لهما بال حتى يعيداننا إلى الله .

« يقيناً » : لأن الله كان أميناً أبداً في الماضي . « يقيناً » :
لأنه لا يليق به أن يبدأ ولا يسكن . « يقيناً » : لأنه ألزم نفسه
بمواعيد عظمى وثمينة . « يقيناً » : لأن شهادة جميع قديسيه بلا
استثناء تؤكد أنه لا يهملنا ولا يتركنا . « يقيناً » : لأنه إن كان

قد حصر كل محبته فينا منذ الأزل فلا يمكن أن ينساها الآن .
إذاً يقيناً إنه لن يأتي يوم في غربتنا على الأرض دون أن يكون
الله بجانبنا بالخير والرحمة .

« إنما خير ورحمة » ، أي خير ورحمة فقط . وهكذا ورد في
(مز ٧٣ : ١) « إنما صالح الله ... لأتقياء القلب » . إن كل أعمال
الله معنا هي خير ورحمة فقط ، ولا تقل عن الخير والرحمة .

أيتها القلوب الخائفة الخائرة ، التي تخشين سلوك الطريق
المظلم وحيدة ، تشجعي ، منطقي ذاتك بشجاعة جديدة ، إرفعي
الأيدي المسترخية وشددي الركب المحلعة . إن الله يعرف عدد
الأيام الباقية من الحياة ، يعرف مطالبها ، وتجاربها وأحزانها .
وهو قد تعهد بأن يعطي القوة على قدر حاجة اليوم « كأيا ملك
راحتك » أو « قوتك » حسب هامش الكتاب المقدس
(تث ٣٣ : ٢٥) ، وبأنه لن يأتي يوم لا يباركه بخيره ورحمته ،
وبأنه هو نفسه سيكون معنا كل الأيام وإلى انقضاء الدهر .



« بيت الرب إلى مدى الأيام »

(مز ٢٣ : ٦)

إن مرور السنين يوقظ فى قلوبنا الرغبة فى البقاء والخلود .
فإن طبيعتنا تتوق لا إلى ما هو وقتى بل إلى ما هو أبدي . وكما
أننا نرى أوراق الأشجار تكتسحها رياح الخريف أو تغطى ممرات
الغابات التى نجتازها فى أيام الشتاء القصيرة ، وكما أن التغيرات
فى عالم الطبيعة تلزمن بأن نتذكر التغيرات الأعظم التى تنقلنا
بصفة مستمرة من عالم أيامنا الماضية إلى عالم غريب لم يُكتشف بعد
كالعالم الجديد الذى أبحر إليه كولومبوس — هكذا تقوم فى داخلنا
رغبة ملحة إلى وطن لا يغزوه الموت ، وإلى صداقات لا يوهنها
الزمن ، وإلى أكاليل من زهور لا تذبل ، وإلى حالة من الوجود
غير قابلة لأى تغيير .

هذا الدوام أو الخلود الذى نفتخره قد تشير إليه الكلمات
التي يحتم بها المرنم الراعى مزموه « إلى مدى الأيام » ، وهي

كلمات بسيطة لكنها مليئة بالمعاني . إن الزمور مليء بالتغيير كالحياة
نفسها . فكل جملة تقدم صورة مستقلة لمنظر جديد فى غربتنا على
الأرض . لكن النهر المضطرب ، الذى تكسر على أحجار كثيرة ،
وتعرج فى منحنيات كثيرة مثيرة ، يظهر الآن بأنه قد انسكب
فى عمق المحيط العظيم : فى الأبدية التى تنقل إلينا موسيقى
أواجها — إذ تتكسر على شواطئ الزمن — نفس النغمة :
« إلى مدى الأيام » ، أو « إلى الأبد » .

لا شك فى أن التغيرات فى حياتنا الفانية لازمة كلها لتعدنا
للحالة التى ليس فيها تغيير . إن الزمن هو التمهيد اللازم للأبدية .
والأرض هى بيت التدريب للحياة الحقيقية التى تنتظرنا عندما
تتعلم الدرس لأخير ، وعندما يدق جرس المدرسة . لكن ذلك
كله يكمل صفاتنا ويصقلها لتبدو فى مظهرها الأخير متناسقة جميلة ،
وكل ذلك سوف يُنسى كالم ليل عندما ندخل الأبدية التى هى دائمة ،
بمعنى إنها لا تأخذ منا شيئاً من ممتلكاتنا الحقيقية إلا لتكملها ،
أو بنفس الكيفية التى بها تؤخذ البذور لاستنبات أنواع أرقى .
على أن هنالك ما هو أسى من فكرة الدوام أو البقاء أو

الخلود ، هو أن السماء بيت ، أو سكن ، أو وطن . هي « بيت الرب » . وهذا أقرب تعبير في العهد القديم لكلمات الرب يسوع ، « في بيت أبي منازل كثيرة » .

« بيت » : يالها من كلمة رائعة . إن البيت يجذب الضال أو الثائه من أقصى الأرض . إنه يبعث الصبر والاحتمال في الفلاح والجندي والمسكشف . إنه يذيب قلب المجرم القاسى بذكرياته الجميلة . إنه يسيل من عيني رجل العالم بحراً من الدموع . إن المرأة الفقيرة تستهين بكل تعب لكي تجعل بيتها نظيفاً .

مهما قلت أن البيت متواضع هزيل

فلن يوجد له على الأرض مثيل

إن ذاك الذي لم يكن يمتلك من حطام الأرض بيتاً يسند فيه رأسه يريد أن يكون لكل منا بيته الذي يقدسه .

وما الذي يجعلنا نحب بيوتنا ونقدسها ؟ ليس موقع البيت ، ولا فخامة بنائه ، ولا بساطته الغناء ، ولا الأثاث الفاخر ... ليست هذه هي التي تخلق البيت . إن توفرت هذه دون وجود الأحباء فيه أصبح لا يُطاق البقاء فيه . يقوم البيت في الأب

والأم والأخوة والأخوات والزوجة والأبناء .

والآن لنحول تفكيرنا إلى السماء التي لا نعرف عنها إلا القليل نسبياً ، ونعرف أن راعيها الصالح قد صعد إليها . ثم انظر إلى نور يعكسه عليها تشبيهاً ببيت كما يصفها المرنم هنا . يقيناً إنها بيت من حيث حياتها الاجتماعية السعيدة . ستوفر لنا الحرية في حضرة الله كما تتوفر للأبناء الحرية في حضرة الوالد والوالدة اللذين يحبانهم بحبة رقيقة . سوف يعرف كل منا الآخر ، ويتحدث كل واحد مع الآخر بحرية ، كما كنا نفعل هنا على الأرض .

تأمل في الأسرة الكبيرة المسكونة من كل الأتقياء في كل الأجيال ، من الطفل الرضيع إلى الشيخ المتقدم في السن . وعندئذ تكون فكرة ضئيلة عما ستكون عليه حالة ذلك البيت عندما يصل إليه آخر ابن وسط تهليل الملائكة وتسميحهم ، وتجتمع كل أسرة السماء والأرض في بيت الأب إلى الأبد . إنهم لن يغادروه أبداً . ولن يخرجوا منه قط . ولن تبطل أفراحهم .

قد يقرأ هذه الكلمات بعض أشخاص في كل أطراف العالم ممن يعيشون في وحدة ووحشة ويمتلك على نفوسهم — أحياناً —

حنين العودة إلى البيت والوطن :

أحن اشتيقاً لذلك الوطن لأنظر ربي يسوع المجيد
وأبقى هنالك طول الزمن وأرفع صوتي بأعلى النشيد

آه ، ليتنا نعود ونصير أطفالاً من جديد ، لكي نجد من
يعنى بنا وبراحتنا ويدبر أعوازنا بدلاً من أن ندبر لأنفسنا ولغيرنا .
قد يكون هذا هو شعور البعض وحنينهم . ومع هذا الحنين قد
تسيل الدموع بسبب ارتحال بعض الأحباء حديثاً .

تعال ، إن هذه الأفكار لن تجدينا شيئاً ، ولن تؤهلنا
لإدراك حقيقة الحياة . بل بالحرى إنها تفت في عضدنا . فعلينا أن
لا نغيرها أقل اهتمام . إن كنا قد فقدنا فردوس الزمن الغابر ،
ووقف ملاك شاهراً سيفه لكي يمنعنا من دخوله مرة أخرى ،
فهناك فردوس آخر ، هنالك فردوس أفضل أمامنا ، يقف على
أبوابه ملائكة يشيرون إلينا للدخول ، هو فردوس بيت أبينا .
يجب أن لا نفكر في طردنا من الفردوس ، بل في عودتنا إليه .
كان البحارة في القديم - إذا ما أبحرت السفينة - يشربون نخب
الأصدقاء الذين تركوهم خلفهم إلى أن يصلوا إلى حدود الميناء التي

تركوها ، وحالما يغادرون الحدود يبدأون بأن يشربوا نخب
الأصدقاء الذين ينتظرونهم أمامهم . فلنركز تفكيرنا في الأصدقاء
الذين ينتظروننا أمامنا .

طوبى لمن يحنّون لذلك البيت ، لأنهم سيصلون إليه .
والمرم يتكلم في هذه الكلمات بلهجة الواثق المتأكد . إنه لا يشك
في أنه سيسكن هناك . صحيح إنه كان خروفاً ضالاً ، وحياته لم
تكن بلا خطية ، وميله لم يكن للسلام والعطف والركة - التي
تؤهل الرجل الوديع لسكن السماء - بقدر ما كان للحرب والدماء .
فكيف يمكنه أن يذهب إلى هناك ؟ وما الذي جعله متيقناً من
الذهاب إلى هناك ؟ لا شك في أنه شعر بأن الراعي الصالح لا
يمكن أن يكون هناك بينما يكون الحروف الضال في الخارج بصرخ
ويبكي . « حيث اكون أنا تكونون أتم أيضاً » (يو ١٤ : ٣) .
لكن لذا وعد آخر أكثر تأكيذاً يليق بنا أن نلتفت إليه
مغتبطين « كما إلى سراج منير في موضع مظلم » (٢ بط ١ : ١٩) .

لأننا قد وثقنا في المسيح وصرنا واحداً معه ، لأننا قد قبلنا
في قلوبنا بذرة الحياة الأبدية التي تحمل معها السماء مصفّرة ، لأننا

قد حصلنا فعلاً على عربون ميراثنا في محضر الروح القدس وبشهادته ، لأن وعد الله وقسمه يؤكدان لنا بركاتنا الأبديّة ، وهذان يجعلان الفشل مستحيلاً - من أجل كل هذه الأسباب وغيرها يستطيع أضعف مؤمن يقرأ هذه الكلمات أن يقول واثقاً : « وأسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام .

يبدو أن هذه الكلمات تشير إلى أن داود تتمتع بالسما قبل أن يصل إليها . فإنه لم يكن يرى بأن بيت الرب يصل إليه المؤمن في المستقبل ، بل هو ممكن الوصول إليه في الوقت الحاضر . في مزمور آخر يتحدث عن السكن في ستر العلي (مز ٩١ : ١) . مزمور آخر أيضاً يستخلم هذه الكلمات الرائعة : « واحدة سألت من الرب وإباهاً ألتس ، أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي لكي أنظر إلى جمال الرب وأنقرس في هيكله » (مز ٢٧ : ٤) .

هل هنالك شك في أن هذه الصلاة الحارة قد أُستجيبَت ، أو أن قصد قلبه قد تحقق ؟ لا شك في أنه - سواء في قصره في جبل صهيون أو منفياً في البرية القاحلة وراء الأردن - كان دائماً يسكن في بيت الرب ناظراً إلى جماله ومتفرساً في هيكله ومتسائلاً

عن إرادته . ليس بيت الرب إلا الوجود في حضرة الرب ، أن يتحقق للمؤمن من وجوده دواماً في حضرة الرب ، أن يتحقق من أن الرب يحيط به من كل ناحية ويظله بعنايته .

لماذا لا نبدأ نحن أيضاً بأن نسكن في بيت الله بهذا المعنى

للقدس المبارك ؟ وهكذا تبدأ سماؤنا لا في اللحظة التي فيها ندخل أبواب المدينة ، بل في اللحظة التي نبدأ بأن نغسل ثيابنا ونبيضها بدم الخروف . إنفا في كل زمان وفي كل مكان نستطيع أن نجد مسكننا في الله الذي كان البيت والملاجئ والمسكن لسكل شعبه في كل الأجيال . في كل زمان وفي كل مكان نستطيع أن نختبئ فيه وقت الزواجر والعواصف . في كل زمان وفي كل مكان نستطيع أن نجعل طبيعته ليس فقط حصننا وملجأنا القوي بل أيضاً هيكلنا . ليت الروح القدس يعين كل واحد منا لكي نستطيع أن نسكن في بيت الرب كل ساعة وكل يوم ، حيث تُمسح الدموع حالماً تُسكب ، وحيث لا تستطيع هموم الحياة وارتباكاتها أن تقتحمه ، وحيث يقود الراعي الصالح قطيعه بصفة مستمرة في المراعي الخضراء فلا يجوع ، وبجانب مياه الراحة فلا يعطش ، وفي الأودية العميقة الرطبة

فلا تضر به الشمس في النهار ولا القمر في الليل . هنا نجد السماء قبل أن نصل للسماء .

فلنحرص إذًا على أن نعيش في هذا المستوى السماوي .
هنالك مستويات كثيرة يمكننا أن نختارها لنعيش فيها . هنالك مثلاً مستوى المعيشة في الحدود الضيقة للبيئة التي نختلط بها ، أو مستوى المعيشة كما يعيش الآخرون ، أو مستوى الحياة العادية التي يحياها أغلب البشر . هذا لا يليق بأولئك الذين يسعون لكي يدركوا ذاك الذي لأجله أدرهم المسيح يسوع .

لكن هنالك مستويان يجب أن يحتلنا تفكيرنا بصفة خاصة ، ويجب أن نختار أحدهما . الأول هو المستوى الذي فيه نعيش في المسيح ، والثاني هو مستوى اختباراتنا أو الحياة العاطفية . من جهة الأول نحن ننقل فعلاً - عن طريق الموت - إلى القيامة من الأموات والصعود إلى السماء ، ونجلس فعلاً في النور الذهبي الذي يشع من عرش المسيح . ومن جهة الثاني ، الذي يتذبذب مع كل تغيير في الجو أو في الطبيعة ، فنحن نرفع فوق قمة الموجة إلى الشمس المشرقة ، وبعد قليل نطرح متعبين محطمين على الرمال

التي تركتها الأمواج تاركة إيانا بعيدين عنها .

أما المستوى الأول فهو الذي يريدنا الله أن نعيش فيه . أما الثاني فهو الذي نختاره لأنفسنا ، وبئس الاختيار . ولا عجب إذا منينا بالفشل واليأس . لقد استبدلنا الحلو بالمر ، واستبدلنا الأبدى بالزمني ، واستبدلنا أساسات الله الثابتة الراسخة غير المتغيرة كحبيته ، بالواهنة المزعزعة .

إنه أسؤال خطير ذلك الذي يجب أن يوجهه كل واحد لنفسه : « ما هو مستوى حياتي ؟ هل هو مستوى أنا ، أو مستوى أخى ، أو مستوى الله ؟ هل أعيش على أساس أنني قمت من الأموات وصعدت إلى السماء ، الخطيئة والموت خلفي ، بينما نور الأبدية فوق ؟ » . يحاول الكثيرون منافع الأسف أن ينزلوا بمستوى تقديرهم للحياة إلى اختباراتهم الوضيعة المنخفضة ، بدلاً من أن يسعوا للسمو بمستوى اختباراتهم إلى سمو الحياة في المسيح . عندما يقوم الإيمان بعمله اللائق فإنه يعمل أمرين . أولاً : إنه يطالب بالموقف الذي هو من حقه - ولو لم يحس به - والذي وعد به الله في كلمته . ثانياً : إنه يمسك بقوة الله ليجعل هذا الموقف

حقيقة في اختباراته كل يوم وكل ساعة [

إننا لا نشعر دوماً بأننا في الموقف الذي تضعنا فيه كلمات
الرسول النارية . في (رو ٦ ، أف ٢ ، كو ٣) يؤكد الرسول بأننا
قد قمنا من الأموات ، وجلسنا على العرش ، وملك مع المسيح ،
وبأن أعداءنا وأعداءه تحت أقدامنا . والإيمان يتمسك بتعاليم كلمة
الله الصريحة هذه ، ولا يعتمد على الشعور وعلى ما نحس به ، بل
يتمسك بكلمة الله كحقيقة . بل إن الإيمان يذهب إلى مدى أبعد .
إنه بصفة مستمرة يتمسك بقوة الله المقتدرة ، القوة التي أقامت
المسيح من قبر يوسف الراعي وأجلسته عن يمين العظمة في
السماوات . وفي وسط هذه القوة يمشي عابراً الأمواج الثائرة ،
ويتسلق الهواء ويتمسك بموقفه كأنه على العرش ، ويتحدى كل
هجمات الجحيم . من المستحيل أن نعيش حياة الصعود أو حياة
السما ، التي هي من نصيبنا يقيناً ، دون قوة الصعود الإلهية .
وهذه في متناول الإيمان (أف ١ : ١٩) .

إنه من الضروري أن نطلب معونة الروح القدس ليحفظنا
في حياة التسليم والإيمان هذه ، وليسكب في حياتنا نعمة الله بصفة

مستمرة . هو روح التذكير ، الذي يحفظنا في حالة تذكير
مستمرة ، والذي يحفظنا في ساعة التجربة ، ويذكرنا بكل شيء .
(يو ١٤ : ٢٦) .

إن عشنا هكذا صارت الحياة سعيدة نافعة ، وصيغ تاريخها في
مزمور ، كالزمور الذي أنشده داود الراعي والملك منذ عدة أجيال
خلت . قد تبدأ قصة رعاية الراعي بخروف ضال . لسكنها لن تبقى
بصفة مستمرة في هذا المستوى ، بل تصعد وتخلق وتترنم قرب باب
السما ، وتصرف أيامها في مستوى تلك الأراضي المرتفعة المنيرة
التي لها الله نفسه شمس ، وأخيراً تعبر إلى بيت الله المجيد ، الذي
يستطيع كل ساكن فيه أن يؤكد دون أقل تردد أو خوف قائلاً :
« وأسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام » .

